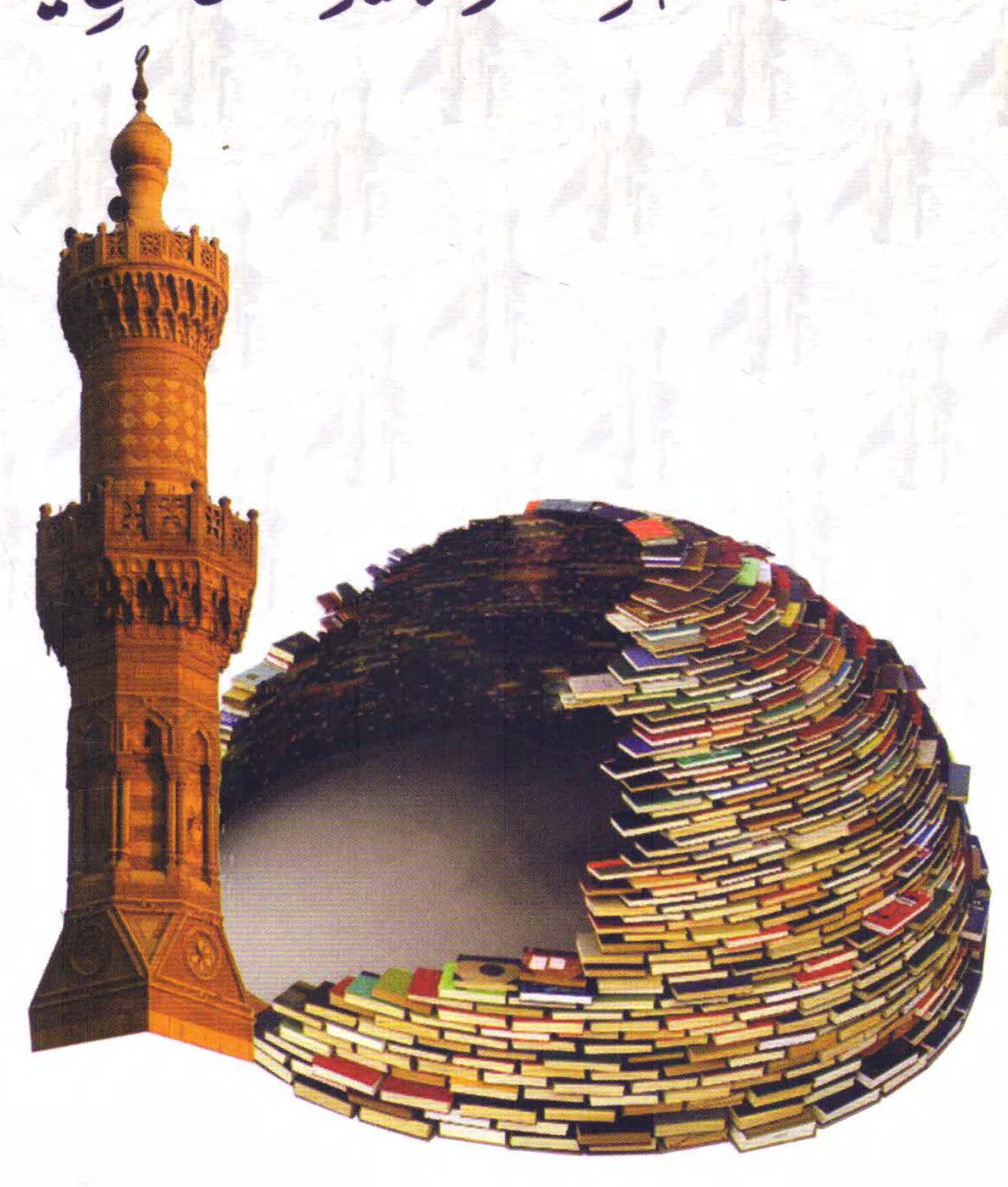
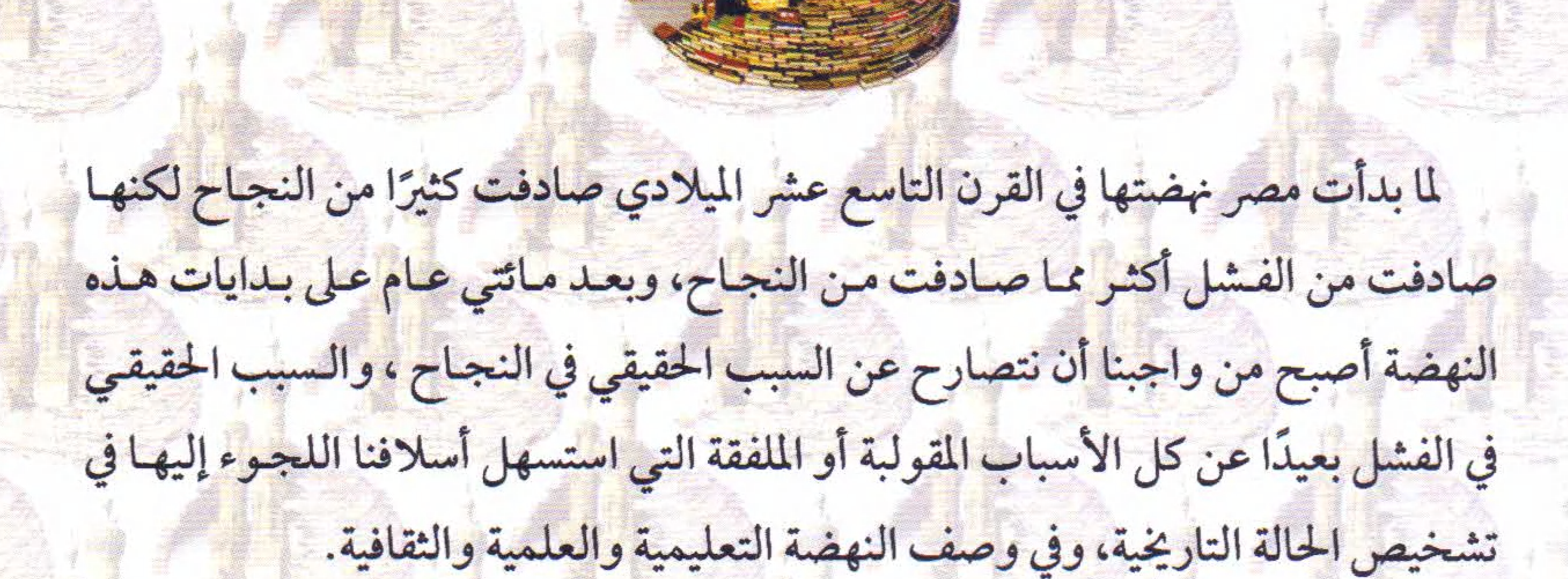


الجامع الأزهر باعث الشرارة

النهضة العربية الموسوعية الحديثة







لما بدأت مصر نهضتها في القرن التاسع عشر الميلادي صادفت كثيرًا من النجاح لكنها صادفت من الفشل أكثر مما صادفت من النجاح، وبعد مائتي عام على بدايات هذه النهضة أصبح من واجبنا أن نتصارح عن السبب الحقيقي في النجاح ، والسبب الحقيقي في الفشل بعيدًا عن كل الأسباب المقولبة أو الملفقة التي استسهل أسلافنا اللجوء إليها في تشخيص الحالة التاريخية، وفي وصف النهضة التعليمية والعلمية والثقافية.

على سبيل المثال ، فإن من الصعب على الذين غرقوا في التفرقة بين عصر محمد علي من ناحية وبين عصر عباس الأول من ناحية أخرى أن يصلوا إلى حقيقة السبب ؛ لأنهم يعولون على قرارات أو توجهات فوقية ربما يكون لها أثر وقتي ، لكنه لا تصنع نهضة ممتدة كما أنها لا تعوق نهضة راسخة .

ولست أشك في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة السبب الجوهري ، لكنهم لم يجدوا مصلحة في إذاعته، ولست أشك أيضًا في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة هذا السبب ، لكنهم استكبروا أن يعترفوا به في ظل حرصهم على الابتعاد بمصر عن انتمائها الحقيقي إلى انتماءات أخرى تجعل لهم مكانة أرفع ومرجعية أقوى.

لكن مضيّ الزمن وتكرر التجارب الموؤودة في النهوض أصبح كفيلا للحق بأن يظهر وأن يعترف به وبدوره إيجابًا وسلبًا ، ومن الجدير بالذكر أن الوصول إلى هذا الحق ليس بالأمر المعجز في ظل الفهم الحقيقي لآليات حدوث النهضة واستمرارها، وهو موضوع كبير لا يمكن لمثل هذه المقدمة ولا لمثل هذا الكتاب أن يدعي أنه يلم به إلمامًا كاملًا، لكن بعض أساسياته تبقى أكبر من أية محاولة للتجاهل أو القفز عليها.

وأول أساسيات النهضة كما نعرف وكما نعلم وكما عرف العالم وسجل هو «الأصالة» ، فلن يمكن لنهضة مصرية أن تتحقق بلا مصريين وبلا هوية مصرية، وهذا هو جوهر القول الفصل بعد ذلك في نجاح النهضة واستمرارها واتصالها أو توقفها عند بداياتها أو حتى إرهاصاتها .





الجامع الأزهر باعث الشرارة
النهضة العربية الموسوعية الحديثة

الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

بطاقة الفهرسة

الجوادي ، محمد

الجامع الأزهر باعثا لشرارة النهضة الموسوعية العربية ،

دكتور / محمد الجوادي . ط ١ . المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٦م

١١٢ص ، ٢٥سم .

رقم الإيداع : ١٦٧٨٦/ ٢٠١٥م

تدمك : ٥ - ٥٢٦ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر . القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د. محمد الجوادي

الجامع الأزهر باعث الشرارة

النهضة العربية الموسوعية الحديثة

دار الكلمة
للنشر والتوزيع





إهداء

إلى الصديق الكريم

الدكتور حسام عبد الظاهر

(١)

لما بدأت مصر نهضتها في القرن التاسع عشر الميلادي صادفت كثيرًا من النجاح لكنها صادفت من الفشل أكثر مما صادفت من النجاح، وبعد مائتي عام على بدايات هذه النهضة أصبح من واجبنا أن نتصارح عن السبب الحقيقي في النجاح ، والسبب الحقيقي في الفشل بعيدًا عن كل الأسباب المقولبة أو الملفقة التي استسهل أسلافنا اللجوء إليها في تشخيص الحالة التاريخية، وفي وصف النهضة التعليمية والعلمية والثقافية.

على سبيل المثال ، فإن من الصعب على الذين غرقوا في التفرقة بين عصر محمد علي من ناحية وبين عصر عباس الأول من ناحية أخرى أن يصلوا إلى حقيقة السبب ؛ لأنهم يعولون على قرارات أو توجهات فوقية ربما يكون لها أثر وقتي ، لكنه لا تصنع نهضة ممتدة كما أنها لا تعوق نهضة راسخة .

ولست أشك في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة السبب الجوهري ، لكنهم لم يجدوا مصلحة في إذاعته، ولست أشك أيضًا في أن كثيرين قد اكتشفوا حقيقة هذا السبب ، لكنهم استكبروا أن يعترفوا به في ظل حرصهم على الابتعاد بمصر عن انتمائها الحقيقي إلى انتماءات أخرى تجعل لهم مكانة أرفع ومرجعية أقوى.

لكن مضيّ الزمن وتكرر التجارب الموؤودة في النهوض أصبح كفيلا للحق بأن يظهر وأن يعترف به وبدوره إيجابًا وسلبًا ، ومن الجدير بالذكر أن الوصول إلى هذا الحق ليس بالأمر المعجز في ظل الفهم الحقيقي لآليات حدوث النهضة واستمرارها، وهو موضوع كبير لا يمكن لمثل هذه المقدمة ولا لمثل هذا الكتاب أن يدعي أنه يلم به إلمامًا كاملًا، لكن بعض أساسياته تبقى أكبر من أية محاولة للتجاهل أو القفز عليها.

وأول أساسيات النهضة كما نعرف وكما نعلم وكما عرف العالم وسجل هو «الأصالة» ، فلن يمكن لنهضة مصرية أن تتحقق بلا مصريين وبلا هوية مصرية، وهذا هو جوهر

القول الفصل بعد ذلك في نجاح النهضة واستمرارها واتصالها أو توقفها عند بداياتها أو حتى إرهاصاتها .

(٢)

ومن حسن حظ تاريخ العلم والحضارة والتمدن والتحضر في مصر أن المثل الدال على ما أقول واضح وضوح الشمس، فحين ذهبت أولى البعثات المصرية إلى أوربا اختار صاحب الأمر (أيا من كان) أن يرسل معها إمامًا للبعثة يعني بالجانب الخلقي في سلوك أعضاء البعثة من الشبان دون أن تكون له سلطة الأستاذ في علومهم أو في دراساتهم ، لكن سر النهضة الأكبر سرعان ما تجلى ، فأصبح هذا الإمام الذي كان الظن أنه صاحب وظيفة هامشية هو باعث النهضة ورائدها ، على حين لم يحقق أي من أعضاء البعثة نفس المكانة في الريادة والبعث ، وإن كانوا قد أصبحوا مهنين ممتازين ، أو علماء جيدي التكوين لكنهم ظلوا يدورون في فلك الحضارة التي ذهبوا إليها دون أن ينشئوا رؤية حضارية كتلك التي أنشأها الأزهري رفاعة الطهطاوي، وهنا ترفع الأصالة رأسها لتقول : إن النهضة لا تتحقق بدون البحث في الأصالة عما ينميها ويشذبها ويهذبها ويغذيها جذورًا وبذورًا على حد سواء .

(٣)

ربما تميز رفاعة الطهطاوي بميزات شخصية، وليس في ذلك شك، لكن الميزة الكبرى في رفاعة أنه نظر إلى الجديد بعين أصيلة لم تتنكر لذاتها ، ولم تبدأ من الصفر، وهكذا تمكن من أن يحقق من الجديد ظلالًا ورافة لمجتمعه من خلال التأمل والنقد والإعجاب والترجيح والتدبر والتعلم والمفاضلة والتوطين والتمكين والتطوير ، وفي أحيان قليلة الرفض والاستعلاء المبررين .

وعندما نبحث عن مفاتيح النهضة ، فإننا لا نستطيع أن نبدأ بشخص صاحب الدرر الكبير دون أن نبحث عن أستاذه الملهم الذي بدأ الرفعة وبدأ الشرارة .

(٤)

ومن حسن الحظ في تاريخ مصر وتاريخ نهضتها وتاريخ الأزهر وتاريخ رفاعة أننا نعرف منذ زمن مبكر أن الموسوعي العظيم الشيخ حسن العطار هو صاحب الفضل على رفاعة وعلى مصر في كل ما حققه رفاعة وحققته مصر من نهضة .

لهذا السبب فإننا نبدأ كتابنا هذا بالحديث عن هذا الشيخ الذي كان أعلم أهل زمانه، كما أنه وصل إلى أعلى منصب علمي في زمانه وهو مشيخة الأزهر ، ثم ننطلق إلى رفاعة الطهطاوي ، ثم إلى رعاة النهضة ومثلها العليا من خلال نموذجي وزيري المعارف المتعاقبين علي مبارك وعبد الله فكري اللذين يمثلان منارتين مضيئتين من منارات النهضة في عصرهما بما قاما به على المستوى الفردي والتنفيذي ، وبما خلفا من آثار في الحياة الثقافية.

وننطلق بعد هذا إلى دور ثالث من أدوار النهضة ، وهو دور الموسوعية بتجلياتها المتعددة في التأليف والجمع والاستعراض والتحقيق والمعجمية والترتيب والتعريف والفهرسة والنشر ، ونختار رجلين اتصلت أدوارهما الحقيقية بالانكفاء التام على هذا التراث الأصيل الذي مثله الأزهر ومكتبته وتراثه الفكري ، وقد تناولاه من خلال المناهج الحديثة القادرة على إعادة العرض وإعادة الإنتاج وقبل هذا إعادة التفكير وإعادة التصميم، وقد كان الرجلان اللذان اخترناهما للتمثيل لهذه الصورة في صدر النهضة فرسي رهان في أمور كثيرة ، وهما أحمد زكي باشا وأحمد باشا تيمور.

(٥)

إذا أجدنا قراءة تاريخ هذه النماذج البارزة التي تولت تشكيل بدايات النسيج المتين في نهضتنا الحديثة ، فإن بوسعنا أن نفهم الفارق بين طريقين لانزال حائرين أمام بداياتها ، ونهايتها وسنظل على الدوام حائرين مع كل تقدم يحققه العلم .

فإما أن نكون ، وهذا هو الأسهل صدى فحسب ، وإما أن نكون ، وهذا هو الأصعب لكنه الأثمر والأخلد حريصين على التأصيل ومستندين إلى الأصالة.

إن قراءة نصوص علي مبارك ومن قبله نصوص رفاعة عن باريس وعن فرنسا لا تغنينا بالطبع عن فرنسا نفسها، وعلمها وفنها وأدبها ، لكننا إذا قرأنا باريس بدون هذه النصوص فلن نبرح باريس ، حيث هي ولن تكون عندنا إلا باريس التي حاول الخديو إسماعيل أن يستنسخها ، فنجح في استنساخ باريس التي كانت موجودة في وقته، لكنه لم ينجح في استنساخ باريس التي أتت بعد تركه الحكم ، فلا نحن نقلنا المترو (١٩٠٠) إلا في عهد السادات نقلًا رمزيًا، ولا نحن نقلنا إيفل (١٨٨٩) ، وإن كنا قد تفاخرنا ببرج ليس له من الأبراج إلا الاسم فحسب .

(٦)

وأحب أن أقول إن الثقافة والموسوعية التي أقصدها تشمل ثلاثة صور مختلفة :
الصورة الأولى هي الصورة القديمة للموسوعية والتي تعني ببساطة شديدة ذلك المعنى اللغوي المباشر أو الموحي من اتساع قاعدة الثقافة أو المعرفة أو النتاج الثقافي بحيث تشمل أكثر من مجالين من مجالات التخصص ، و أقول أكثر من مجالين لأن شمولها مجالين فقط يجعل الإنسان يوصف بأنه كذا وكذا فحسب ، كأن تقول إنه محدث وفقيه، أو فيلسوف وطبيب ، أو مفسر ومتكلم، أو طبيب وأديب .. وهكذا ، لكن المحدث الفقيه إذا برز أيضًا في التفسير أصبح خارج نطاق الحديث الزوجي عن تخصصين ، وهكذا تقاعد الناس أو تعارف الناس على أن يصنفوا المبرز في أكثر من تخصصين بأنه موسوعي ، ونحن نرى علامات الإعجاب ودلائله في تراجم الرجال حين تقرأ عن إمام من أئمة الفقه فنجد الميادين التي برز فيها وهي تتالى في جمل معبرة من جمعه للتفوق في الفقه والأصول والتفسير والحديث والفلك ، أو جمعه للتفوق في التفسير والحديث والفقه والتاريخ وهكذا .

وفي هذا الصدد يمكننا أن نجد أن ابن سينا مثلًا كان طبيبًا وفيلسوفًا وصيدلانيًا وفلكيًا وفزيقيًا وجيولوجيًا ، وأن الزهراوي كان جراحًا وطبيبًا وصيدلانيًا ونباتيًا وهكذا.

ولعل نموذج القرن التاسع عشر من هؤلاء العلماء المسلمين كان هو الشيخ حسن

العطار الذي جمع التفوق في الفقه وأصوله والفلك والفلسفة والمنطق وعلم الكلام فضلًا عن الإلمام بأدبيات فنون أخرى كعلوم الطب.

الصورة الثانية من الموسوعية تتعلق بالمنهج الذي يفرض نفسه على صاحب الموهبة، فلا يتناول الأمور من نظرة ضيقة يفرضها علمه أو يفرضها تخصصه أو تفرضها سلطته العلمية أو أستاذيته أو مرجعيته، وإنما هو حين يتناول أمرًا من الأمور بالبحث أو الكتابة أو التأليف يستعرض ما هو متاح من معرفة في مجاله، ويتناول هذه المعرفة بمنهج يبحث عن وجوه الاتفاق والائتلاف و مظاهر الافتراق والتمايز، و حدوث التواصل والانقطاع، ويبحث أيضًا في الميدان الذي سبق الميادين الأخرى إلى هذا الفهم كما يبحث في الطريقة التي امتدت بها النظرة من ميدان إلى ميدان، ولهذا تقرأ ما يكتبه صاحب المنهج الموسوعي فتحس بوحدة المعرفة من ناحية، وتحس من ناحية أخرى بنوع من السيطرة على الكون المعرفي أو الفضاء المعرفي، بحيث تتيح لك مطالعته أو متابعته أن تمتد رؤيتك وتتسع قدرتك على فهم الحقيقة وعلى تصورها، ثم على تصويرها وعلى التعامل معها .

ثم تأتي الصورة الثالثة وهي الصورة الغالبة على المصطلح الآن و مع أنها تبدو في أذهان كثيرين مرتبطة بالصورة الثانية التي وصفناها لتونا، فإنها شيء مختلف تماما وهي موسوعية الإنتاج الفكري أو الموسوعية في الكتابة، أو الكتابة الموسوعية، وهي نتاج نوع من الكتابة يلتزم بإطارات منهجية (قابلة للاختلاف من موسوعية إلى أخرى ومن ميدان إلى آخر لكنها في النهاية محددة وواضحة ومقيدة) لكن هذا الالتزام لا يقف عند حدود ما يجب الكاتب أو المثقف أن يكتبه، وإنما يمتد إلى وضع عمل موسوعي متكامل يجعل صاحبه من أصحاب الموسوعات أو يجعل مجموعة (أو جماعة) أصحابه المؤلفين من أصحاب الموسوعات، وهنا نذكر بكل فخر علماء العربية الكبار الذين وضعوا كتب الطبقات المبكرة، والذين وضعوا كتب الخطط المبكرة، والذين وضعوا المعاجم الكبرى.

ومن الطريف أن أحد هذه المعاجم وهو القاموس المحيط سرعان ما أصبح اسمه وهو

« القاموس » علمًا على المعاجم ، وكلما أراد أساتذة منهجيون عتيدون في مجمع اللغة العربية أو أشباهه أن يصححوا للناس كلمة القاموس ويستبدلوا بها كلمة المعجم منبهين إلى أن القاموس لفظ يخص القاموس المحيط فقط لصاحبه الفيروزآبادي ، فإن أحدًا لا يستجيب لهم ولن يستجيب لهم ، وكثيرًا ما قلت لهم إن الواقع يقول إن المعرفة نفسها كرّمت الفيروزآبادي بأن جعلت القاموس دالًا دلالة واسعة لا على معاجم اللغة وحدها وإنما أصبح دالًا على كل الموسوعات الصغيرة والمتخصصة في كل ما هو ممكن من ميادين التأليف الموسوعي ، وهي حقيقة لا تتطلب مني أن أعدد عشرات الموسوعات المسماة قواميس في عشرات الميادين المعرفية.

(٧)

هذا التأليف الموسوعي هو ما حمل روادٌ كبارٌ من طراز الذين نتحدث عنهم في هذا الكتاب راياته المبكرة ، حيث نجد علي مبارك يعيد فن الخطط ويحييه ، وحيث نجد عبد الله فكري يبدع في إدخال صور مبكرة من هذا التأليف في الثقافة العربية وفي مناهج التربية والتعليم (أو ديوان المدارس) على نحو ما فعل في الفصول الفكرية و الفوائد الفكرية. وهي كتب لم توصف في زمنها بالموسوعة لكنها تمثل بدايات مبكرة للموسوعية العربية بمعناها الحقيقي.

ثم نخطو خطوة أخرى على يد الأحمدين ، أحمد زكي ، وأحمد تيمور ، فنجد معجم الأمثال الشعبية وغيره عند تيمور ، ومعاجم أحمد زكي ، ونجد الفكرة الموسوعية في الإنتاج الفكري قد وصلت إلى حدودها الكفيلة بأن تأخذ دورها في الثقافة العربية الحديث المعاصرة ، وهو ما شجع محمد فريد وجدي على سبيل المثال أن يضع و ينشر دائرة معارف القرن العشرين على نحو استوفى الكثير جدًا من مقومات دائرة المعارف أو الموسوعة ، وشجع على الانطلاق في العمل الجاد في هذا المجال على مدى أجيال بذلت جهودًا اكتمل بعضها ، وإن أجهضوا هم أنفسهم (بأنفسهم وظروفهم) كثيرًا منها.

وكانت هذه النهضة الموسوعية مؤشرا دالا على تأصل ونجاح النهضة العربية الحديثة.

(٨)

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل ، وأن يرزقني العفاف والغنى ، والبر والتقى ، والفضل والهدى ، والسعد والرضا ، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم ، وقلب الطفل الكبير ، وإيمان العجائز ، ويقين الموحدين ، وشك الأطباء ، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت ، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي ، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني . والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم وتعب ووصب وقلق ، وأن يهبني الشفاء والصحة والعافية ، وأن يقيلني من مرضي ، وأن يعفو عني ، وأن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر . وأن يحسن ختامي ، وأن يجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها ، وشر الناس ، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت ، وأن ينفعني بما علمني ، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحني العقل ، والمعرفة ، والمنطق ، والفكر ، والذاكرة ، والصحة ، والوقت ، والقدرة ، والجهد ، والمال ، والقبول وهو جلّ جلاله الذي هداني ، ووفقني ، وأكرمني ، ونعمني ، وحبب فيّ خلقَه ، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد ، والشكر ، والثناء الحسن الجميل .

د. محمد الجوادي



الباب الأول

رمزان للطليعة :
الأستاذ وأستاذه

الفصل الأول
الشيخ حسن العطار
(١٧٦٦ ـ ١٨٣٥)

(١)

هو الشيخ حسن بن محمد العطار، وكان يلقب بأبي السعادات.

أعظم شيوخ الأزهر الكبار في القرن التاسع عشر، وهو واحد من كبار علماء الفقه الشافعي، ومن الرواد الأوائل الذين اتجهوا نحو إصلاح التعليم في الأزهر، يعد بحق رائدا من رواد النهضة، وهو الذي بث شرارتها في نفوس كثير من تلاميذه من جيل الرواد الذين كان أبرزهم رفاعة الطهطاوي، ومحمد عياد الطهطاوي وغيرهما، وهو صاحب شعار :«إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها». وصفه الجبرتي بأنه «قطب الفضلاء وتاج النبلاء ذو الذكاء المتوقد، والفهم المسترشد الناظم الناثر، الآخذ من العلوم العقلية والأدبية بحظ وافر».

ينحدر الشيخ العطار من أصل مغربي، وقد ولد في القاهرة على أرجح الروايات في عام ١٧٧٦، وبعض المراجع تذكر أن ولادته كانت بعد هذا التاريخ بعامين.

(٢)

تلقى تعليمًا دينيًا تقليديًا، كان والده عطارا، وكان يستخدم ابنه في حانوته، وكان الابن شغوفا بالعلم، فتلقى تعليمه بالأزهر خفية في بادئ الأمر، ولما عرف والده بتفوقه أعانه على الدراسة في الأزهر، وفيه أخذ عن كبار مشايخ الأزهر كالشيخ الأمير، والشيخ الصبان، وغيرهما حتى اكتسب منهما صفات حميدة ، وعرف بنبوغه، وشهد له أساتذته بالعلم والفضل، ومنح الشهادة العالمية عن جدارة واستحقاق .

وكان للشيخ العطار ولع شديد بسائر المعارف البشرية المتاحة في العصر الذي عاش فيه ، وقد ظل طيلة دراسته الأزهرية، وبعد تخرجه حريصًا على تقصي المعرفة وإرواء نهمه الشديد إليها، لهذا فإنّه درس العلوم الهندسية والرياضية والفلكية،وتعمق في دراستها، ودفعه حب المعرفة والعلم إلى أن يمارس بنفسه التطبيق العملي للمعارف التي تعلمها نظريا، وفي هذا الصدد يروى أنه كان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية، كما كان يتقن

الرصد الفلكي بالإسطرلاب، وقد سجل في مؤلفاته ما يدل على تمكنه من هذه الفنون والقدرات الخاصة في مؤلفاته.

وقد امتدت مهارات الشيخ العطار إلى علوم الطب والتشريح، وإلى علم الموسيقى التي كان يجيد فنونها أيضًا.

وعلى عادة المبرزين في ذلك الزمان كان الشيخ العطار يجيد التركية، كما كان له إلمام بالفرنسية، وكان من أشد الناس حرصًا على الاطّلاع على الكتب المعربة.

(٣)

كان الشيخ العطار فضلًا عن هذا كله أديبا وشاعرا معدودا في طليعة الأدباء والشعراء في عصره، وكان يحضر دروسه في الأزهر الكثير من العلماء والطلاب، فكان إذا بدأ درسه ترك كبار العلماء من زملائه حلقاتهم وأقبلوا عليه مستزيدين من علمه الفياض، ومما هو مشهور أن المستشرق الإنجليزي المعروف إدوارد وليم لين وعددًا آخر من المستشرقين كانوا من بين مَنْ كان يحضرون مجالسه.

وقد ظل العطار يمارس دوره العلمي كأستاذ قدير حتى ابتليت البلاد بالحملة الفرنسية (١٧٩٨م) وعندها غادر القاهرة إلى أسيوط، ثم عاد إلى القاهرة إبّان الاحتلال، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية، وشاهد التجارب العلمية التي قاموا بها، ثم سافر إلى مكة للحج، ومنها إلى فلسطين، ثم رحل إلى الشام وأقام في دمشق، ثم سافر إلى إسطنبول وألبانيا، وبعد أن تخلصت مصر من الاحتلال الفرنسي (١٨٠١) عاد إلى القاهرة.

ولما تم إنشاء جريدة «الوقائع العربية» المصرية في عهد محمد على باشا كلّف الشيخ العطار بالإشراف على تحريرها.

(٤)

ظل الشيخ حسن العطار أستاذًا متمكنا مشتغلا بالعلم، رائدًا للفكر، منارة للخلق الرفيع حتى اختير ليتولى مشيخة الأزهر (١٨٣٠)، بعد أن كان اسمه قد أصبح ملء السمع والبصر، وبعد أن كان قد وصل إلى المكانة التي يصفها القول المأثور: «إنه أعلم أهل زمانه»، وقد زاده المنصب حبًا في العلم وممارسة له، وظل في هذا المنصب حتى وفاته.

كان الشيخ حسن العطار يحارب ما يراه من ركود عقلي وفكري في أوساط علماء الدين

المعاصرين له الذين عاشوا ملتزمين بما تركه أسلافهم من أصحاب المتون والحواشي من المتأخرين، وكان يدعو إلى تغيير هذه العقلية ، وكان يرى أن النهضة الإسلامية لن تتحقق إلا بالعلوم والمعارف، والأخذ بأسباب التقدم والحضارة، وكان يقول: «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها».

وظل العطار يتجه بجهده نحو إصلاح الفكر، وذلك لاقتناعه بأنه بدون إصلاح الفكر لن يكون هناك أمل في التقدم، وعلى الرغم من كراهيته الشديدة للاحتلال الفرنسي، فقد كان معجبا بما وصلت إليه فرنسا من تقدم العلوم والمعارف.

(٥)

كان الشيخ العطار يكرر الدعوة إلى التجديد في مناهج التربية والتعليم، وكان في أدائه للأستاذية يتناول الموضوعات القديمة بعرض جديد وشيق وجذاب، وقد امتدت هذه الروح إلى مؤلفاته وكتاباته وتعليقاته على تفسير البيضاوي الذي كاد أن يكون مهجورا في الأزهر.

وكان الشيخ العطار يطالب بإدخال العلوم الحديثة والعلوم المهجورة بالأزهر إلى مناهج الدراسة الأزهرية، وكان يطالب بدراسة الفلسفة، والجغرافيا، والتاريخ، والأدب، والعلوم الطبيعية، وبالرجوع إلى أمهات الكتب العلمية، وعدم الاقتصار على المتون والحواشي المتأخرة.

وقد وجه الشيخ العطار تلاميذه إلى التجديد فيما يقومون به من كتابات أو دراسات حتى وإن كانت تتناول موضوعات قديمة، كما وجههم إلى التجديد في اختيار الكتب التي يدرسونها والمناهج التي يدرسون بها.

وهو الذي دفع تلميذه الأديب محمد عياد الطنطاوي إلى شرح مقامات الحريري بأسلوبه الأدبي البليغ، كما أنه هو الذي دفع تلميذه رفاعة رافع الطهطاوي لتدريس الحديث والسنّة بطريقة المحاضرات دون التقيد بكتاب خاص يقرأ منه، أو نص معروف يعتمد عليه، فكان هذا مثار إعجاب العلماء.

كذلك فإنه هو الذي رشح رفاعة الطهطاوي للسفر إلى فرنسا، ونصحه باستيعاب كل ما يمكن استيعابه من آثار الحضارة الفرنسية، وأشار عليه بتدوين كل ما يشاهده أو يعرفه

أو يسمع عنه، فكانت نتيجة هذه التوجيهات غير المعهودة ولا المسبوقة في ذلك الجيل أن قام الطهطاوي بتأليف كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

(٦)

و على نحو ما أشرنا من قبل فقد برع الشيخ العطار في فنون النثر والشعر، كما برع في غيرهما من علوم وفنون ، وكان له مثل معاصره عبد الله فكري أسلوبان متباينان في الكتابة: كان يميل في الأمور العلمية والشؤون المألوفة إلى سهولة الأسلوب، والتخلص من السجع، والبعد عن التكلف، لكنه كان في الكتابة الأدبية حريصًا على الصياغة البلاغية التقليدية ، والسجع، والمحسنات البديعية.

أما شعره فقد تناول فيه شتى فنون الشعر المعروفة في زمانه، وبخاصة في مجالات الوصف والتهنئة والمدح.

تشرئب في شعره الوصفي بعض اللمسات الوجدانية الرقيقة، على نحو ما يتجلى في وصفه لجمال الطبيعة، فقد كان كثيرًا ما يتغزل في جمال الطبيعة وجمال الحياة التي يعيشها أو يمر بها ناعيا على القدماء بكاءهم على الأطلال ويعد شعره إرهاصا ببزوغ فجر جديد للنهضة الشعرية التي شهدتها الساحة الأدبية بعد ذلك على أيدي شعراء طلائع النهضة في العصر الحديث، وعلى رأسهم محمود سامي البارودي.

(٧)

وإذا أردنا نموذجًا من شعر الشيخ العطار فإننا ننقل للقارئ قوله في وصف منتزهات دمشق:

بوادي دمشق الشام جُز بي أخا البسط ... ورج على باب السلام ولا تخطِ

ولا تبك ما يبكي امرؤ القيس حوملا ... ولا منزلا أودى بمنعرج السقطِ

فإن على باب السلام من البها ... ملابس حسن قد حفظن من العطِ

هنالك تلقى ما يروقك منظرا ... ويسلي عن الأخدان والصحب والرهطِ

عرائس أشجار إذا الريح هزها ... تميل سكارى وهي تخطر في مرطِ

كساها الحيا أثواب خطر فدثرت ... بنور شعاع الشمس والزهر كالقرطِ

وقد أورد الجبرتي في تاريخه أبياتا جميلة مؤثرة نظمها في رثاء الشيخ محمد الدسوقي (المتوفي سنة ١٨١٥م) حيث يقول:

أحاديث دهر قد ألم فأوجعا ... وحل بنادي جمعا فتصدعا
فقد جال فينا البين أعظم صولة ... فلم يخل من وقع المصيبة موعبا
وجاءت خطوب الدهر ترى فكلما ... مضى حادث يعقبه آخر مسرعا
....
....
سعى في اكتساب الحمد طول حياته ... ولم تره في غير ذلك قد سعى
ولم تلهه الدنيا بزخرف صورة ... عن العلم كيما إن تُغر وتخدعا
لقد صرف الأوقات في العلم والتقى ... فما أن لها يا صاح أمس مضيعا
فقدناه لكن نفعه الدهر دائم ... وما مات مَنْ أبقي علوما لمن وعى
فجوزي بالحسنى وتوج بالرضا ... وقوبل بالإكرام ممن له دعا

(٨)

خلّف الشيخ حسن العطار مؤلفات عديدة تدل على سعة معارفه وثقافته، وقد شملت مؤلفاته علوم المنطق، والفلك، والطب، والكيمياء، والهندسة، والتاريخ، والجغرافيا، كما شملت الأدب، شعرا ونثرا، وذلك بالإضافة إلى أصول الفقه، وعلم الكلام، والنحو، والبلاغة، وكثير من الآثار التي تركها الشيخ العطار لاتزال للعجب العجاب مخطوطة في دار الكتب المصرية ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لنشرها إن امتد بي العمر ، وقد كنت شرعت في هذا من خلال مشروع كنوز القرن التاسع عشر.

- في أصول الفقه:

- «حاشية العطار على جمع الجوامع في أصول الفقه لأبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي»، طبعة ١٩٠٠ و١٩١٣.

- في الأدب:

- ديوان العطار الذي يشتمل على الكثير من شعره.

- شرح كتاب الكامل للمبرد.
- جمع وترتيب ديوان ابن سهل الأندلسي.

- في المنطق وعلم الكلام:

- «حاشية العطار على التهذيب للخبيصي»، ١٨٧٨.
- «حاشية العطار على شرح تهذب المنطق والكلام لسعد الدين التفتازاني»،١٩٢٧.
- «حاشية العطار على شرح إيساغوجي في المنطق لأثير الدين بن عمر الأبهري».
- «حاشية العطار على شرح زكريا الأنصاري على متن إيساغوجي في المنطق»، ١٩٢٨.
- «حاشية العطار على كتاب نيل السعادات في علم المقولات للشريف البليدي».
- «حاشية العطار على الجواهر المنتظمات في عقود المقولات للشيخ أحمد السجاعي».
- «حاشية العطار على مقولات السيد البليدي»، طبعة مصر، ١٩١١.
- «حاشية العطار الصغرى على الجواهر المنتظمات للسجاعي».
- «رسالتان في علم الكلام»
- «حاشية العطار على شرح العصام على الرسالة العضدية للإيجي».

(٩)

ونأتي إلى آثاره في علوم اللغة العربية :

- وللشيخ العطار في النحو:

- «حاشية العطار على شرح الشيخ خالد الأزهري لكتاب قواعد الإعراب لابن هشام النحوي»، طبعة ١٩٢٦.
- «حاشية على شرح الأزهري على متن الأجرومية».
- «منظومة العطار في علم النحو» وقد شرحها تلميذه محمد العطار الدمشقي.
- «حاشية على لامية الأفعال لابن مالك».
- «الفوائد الجلية في اللغة العربية».

- وفي علم البلاغة:

- «شرح السمرقندية في علم البيان لمؤلفها ابن القاسم بن بكر الليثي السمرقندي».

- وفي أدب المراسلات وما نسميه الآن : «التعبير الوظيفي» :
- «إنشاء العطار في المراسلات والمخاطبات وكتابة الصكوك والشروط مما يحتاج إليه الخاص والعام».

(١٠)

ونأتي إلى آثاره في العلوم التي لم تكن شائعة في الأزهر في حينه :

- في الفلك:

- «رسالة في كيفية العمل بالإسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط (وهي آلات رصد فلكية)، طبعات متعددة.
- «رسائل في الرمل والزايرجة (وهما طريقتان لاستطلاع معرفة الغيب).

- وفي الطب:

- «الطب والتشريح».
- ثلاثة مقالات في الكي والفصد.
- نبذة في علم الجراحة.
- «راحة الأبدان في شرح نزهة الأذهان للأنطاكي».
- «حاشية العطار على الرسالة الولدية للمرعشي».

- وله أيضا:

- «حاشية العطار على شرح ملا حنفي على آداب البحث للعضد».
- «حاشية العطار على نتائج الأفكار».
- «تحفة غريب الوطن».

(١١)

كانت للشيخ العطار مشاركة في التاريخ والجغرافيا، وقد نقل عنه الجبرتي نصوصا في كتابه المعروف باسم «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس»، وقد أشار في مقدمة كتابه إلى ذلك بقوله عن أحداث الحملة الفرنسية: «وكان ممن اعتنى أيضا بجمع تلك الأخبار قطب الفضلاء وتاج النبلاء صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار، فضممت قائمة من بعض منظومه ومنثوره بحسب المناسبة إلى هذا السفر لينتظم معنا في سلك

حسن الذكر».

وقد وصفته دائرة المعارف الإسلامية - في مادة الأزهر - بأنه «كان رجلا مستنيرا، اشتهر بعلمه، وكان أيضا شاعرا ناثرا من أصحاب الأساليب».

وممن مدحوا الشيخ العطار بطرس كرامة الذي قال فيه لما قابله في مصر:

قد كنت أسمع عنكم كل نادرة	حتى رأيتك يا سولي ويا أربي
والله ما سمعت أذني بها نظرت	لديك عيناي من فضل ومن أدب

(١٢)

توفي الشيخ حسن العطار عام ١٨٣٥م على الأرجح وقيل: بل توفي ١٨٣٤م، وعلى هذا فإنه عاش في القرن التاسع عشر قدر ما عاش في القرن الثامن عشر تقريبًا.

كتب عنه العلامة أحمد تيمور كتابة جميلة، وكتب آخرون عن جوانب كثيرة من حياته الفذة.

*****

الفصل الثاني
رفاعة الطهطاوي
١٨٠١ - ١٨٧٣

(١)

هو الآن أشهر الشخصيات الفكرية في القرن التاسع عشر، وهو الآن رائد النهضة المصرية الحديثة، لكنه لم يكن معترفًا به على هذا النحو في أجيال سابقة ، حتى في عصر محمد علي، الذي بدأ فيه مجده ، ولا في العصر الذي امتدت إليه زعامته الفكرية وهو عصر إسماعيل، بل إنه فيما بين هذين العصرين عانى التهميش ، بل إنه عانى النفي في عهد عباس الأول!!

هو رفاعة بن بدوي بن على بن محمد بن على بن رافع الطهطاوي.

ولد بطهطا (محافظة سوهاج الآن) في ١٥ من أكتوبر ١٨٠١م، ونشأ نشأة عادية في بيت أبوين فقيرين، وتلقى تعليمًا دينيًا بدأه في الكتاب حيث درس ما كان متاحا من العلم على نحو ما كان يتلقاه طلبة العلم في عصره، ثم التحق بالأزهر وانتظم في دراسته وتخرج فيه.

وفي الأزهر أتيح له أن يعرف الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ ـ ١٨٣٥) الذي كان أبرز الشيوخ الذين تلقى العلم عليهم، وهو الذي وجهه إلى طريق التجديد والاجتهاد في طلب ودراسة العلوم غير التقليدية، وغير المألوفة لدى الأزهريين في ذلك العهد.

(٢)

وقد عين الطهطاوي مدرسًا بالأزهر عقب تخرجه، وبعد عامين من العمل بالتدريس بالأزهر انتقل الطهطاوي إلى وظيفة الوعظ والإمامة في الجيش، وقد رشحه لهذه الوظيفة الشيخ حسن العطار، فلما طلب الوالي محمد على من الشيخ العطار ترشيح أحد العلماء ليكون بمثابة الإمام الديني للبعثة الدراسية المسافرة إلى باريس، رشح الشيخ حسن العطار الشيخ رفاعة، فسافر إلى بارس (١٨٢٦)، وقد أوصاه أستاذه العطار بتدوين مشاهداته في بلاد الفرنسيس على النحو الذي صنعه الرحالة المسلمون القدماء من أمثال

ابن جبير، وابن بطوطة، لينتفع المسلمون بمطالعة هذه المشاهدات.

(٣)

لم يكن متوقعا لرفاعة ولا منه عندما اختير إماما للمبعوثين أن يتخطى مهمته في الوعظ والإرشاد لأفراد البعثة، لكنه عاش في باريس بوجدان يقظ، وبصيرة ناقدة، وظلت عينه مسلطة على ثقافتها وعلمها، وقد احتفظ بشخصيته العربية الإسلامية ، وعاد إلى وطنه واسع الثقافة، سليم العقيدة، سليم الوجدان، مزودًا بالخبرة والخيال، معتزمًا خدمته على نحو ما يفعل كل وطني مسكون بحب بلده.

أثبت الطهطاوي طموحه إلى ما هو أكبر من الوظيفة التي اختير لها، والواقع أنه كان طموحا لإمامة العلم والمعارف على نحو ما كانت إمامته في الصلاة والوعظ للمبعوثين، ولهذا فإنه بدأ تعلم الفرنسية منذ أن ركب الباخرة التي سافر عليها من ميناء الإسكندرية، وفي باريس طلب أن ينضم رسميا إلى سلك المبعوثين الدارسين، فكان هناك إماما في شعائر الدين، وطالب بعثة تفوق على أقرانه من المبعوثين في طلب العلم الحديث واستيعاب الحضارة !

عاش رفاعة في باريس يبحث ويدرس، يناقش ويسأل في كل شيء مر به، وقد درس نظام الحكم بفرنسا، وترجم دستورها وعلق في كتابه «تخليص الإبريز» على مواد هذا الدستور.

(٤)

كان كتاب الطهطاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه بباريس بمثابة رؤية متميزة وانطباعية وصادقة أطلت بذكاء وتفحص ونقد على الحضارة الغربية الناهضة في عصرنا الحديث، وقد كتبه الطهطاوي بوجدان متطلع إلى نهضة أمته، وإن لم يخل كتابه وما سجله فيه من حديث عن غرائب وعجائب الرحلات.

شكل التكوين الإسلامي العميق والتعليم الأزهري الجاد سلاحين قويين للطهطاوي أعاناه على الوقوف أمام الحضارة الجديدة وقفة ناقدة ، لا تخلو من إعجاب وتقدير، لكنه لم يندهش بكل ما رآه، وقد وظف ملكته النقدية في الحكم على ما هو صالح وعلى ما هو غير صالح، وتبدت منذ كتابه هذا الدلائل الواضحة لقدرته الفائقة على اكتشاف العناصر

الجوهرية في مقارنة الفلسفات والتوجهات الفكرية ، وفهم العلوم الطبيعية ، وأسس صناعة التمدن متنبها إلى ما هو مشترك إنساني عام بين كل الحضارات والثقافات والديانات من ناحية، وحريصًا على التمييز والتفريق بين الحالين والتجربتين من ناحية أخرى ، كما ظهر انتباهه الذكي إلى دور المعارف الدينية في تثقيف وتهذيب النفس الإنسانية وإلى مدى ما تتمايز به الحضارات والديانات من تأصيل وتجديد.

وكان رفاعة الطهطاوي يرى أن «علوم التمدن المدني» تمثل العلوم التي نحن أحوج ما نكون إليها، وكان حريصًا على التفريق بين هذه العلوم الطبيعية والبحتة والمحايدة من ناحية، وبين علوم الفلسفة والمجتمع ، ومن المعروف أنه كان يقف وجلا وحذرًا ، بل ويدعو إلى التوقف أمام الفلسفة الوضعية المادية التي كفرت بالأديان، والتي اعتمدت فقط على العقل المجرد والنواميس الطبيعية في تحصيل المعارف والعلوم.

(٥)

كان للطهطاوي ميل فطري هذبته تعاليم الإسلام إلى أن يتمنى ازدهار مبادئ الحرية والديمقراطية في بلده، وقد كتب في هذا المجال بروح مؤمنة طامحة مستشرفة لمستقبل أفضل.

وقد أهلته إجادته للغة العربية - مع الفرنسية - للنهوض بترجمة مختارات من فكر وعلوم الحضارة الفرنسية التي كان الشرق العربي والإسلامي غريبا عنها، ومتطلعا إليها في ذلك التاريخ ، ومع أنه لم يكن أفضل المترجمين في عصره ولا أدقهم ولا أغزرهم ، فإن حرصه على أن يذكر أنه «يترجم ولا يؤلف» حفظ له حق الريادة في الترجمة بدلا مما كان سهلا عليه بادعاء الإبداع في كل ما كتب.

(٦)

عاش رفاعة الطهطاوي متحمسًا ، بل متيمًا بدوره الذي عهد إليه في مدرسة الألسن، وكان يرى في هذا الدور تجسيدًا للإيمان بأهمية اطلاع العرب على الإنتاج الفكري في اللغات الأخرى (اللسان الأجنبي) حتى تصبح بلاده على اتصال دائم بالفكر العالمي.

وليس من قبيل الغلو في المديح أن نقول : إنه كان أول مَنْ أدرك أن الترجمة هي البداية الوحيدة للنهضة، فبدأ بنفسه حيث قام بترجمة العديد من الكتب في الكثير من جوانب المعرفة.

وهكذا اقترنت مرحلة النضج العقلي عند الطهطاوي بنقل العناصر الإيجابية (في نظره) من عناصر الثقافة الأوروبية الحديثة، وكانت هذه الفكرة تعبيرًا عن نقلة حاسمة في تطوره الفكري، ومن ثم في تطور ثقافتنا الحديثة، وكانت لها أسبابها ومسبباتها في المناخ الفكري، كما كانت لها آثارها وتأثيراتها في مجتمعنا الثقافي.

وعلى سبيل المثال فإنه دعا إلى تعليم المرأة وتثقيفها أسوة بالرجل، واتضحت هذه الفكرة في كتابه «المرشد الأمين للبنات والبنين» الذي ظهر (حتى في عنوانه) النص على أولوية تعليم المرأة حتى تقوم بواجباتها، ولاشك في أنه أول مَنْ دعا إلى تحرير المرأة، وإن كانت دعوة قاسم أمين التالية له بقرن من الزمان قد لقيت من التمجيد ما لقيته بحكم عهد جديد.

(٧)

ظل الطهطاوي مؤمنا بأن لثقافتنا العربية جذورًا تاريخية قوية، وأن هذه الجذور شهدت إنجازات واكتشافات حضارية ، وكان يؤكد على أن المنصفين من الأوروبيين شهدوا بذلك، حيث يقررون أنها قامت على القدرة المبدعة للإنسان العربي، سواء في تعامل العربي مع الطبيعة واستئناسها، أو في تعامل العربي مع المجتمع بتوسيع مدركات أفراده في مجالات كثيرة منها الفكر والأدب والفن.

ركز رفاعة الطهطاوي في كل ما كتب على الاعتداد بالعقل كمرشد وموجه، وهكذا كان ، في رأي كثيرين ، أول مَنْ أرسى الدعوة إلى عصر التنوير.

كان رفاعة الطهطاوي معجبًا بالصحافة الفرنسية، وقد وصفها بقوله: «إن الإنسان يعرف فيها سائر الأخبار المتجددة، سواء كانت داخلية أو خارجية»، وكان إعجابه يدفعه إلى أن يتمنى لبلده صحافة جديدة، ولهذا فإنه أجاد العمل حين أتيح له أن يسهم في تأسيس الصحافة الحكومية وتطويرها في «الوقائع المصرية».

(٨)

وقد أبدى الطهطاوي إعجابه المتكرر بما كان يراه من تقدم فرنسا في ممارسة وتنظيم الحرية، ومؤسساتها الدستورية والنيابية والقانونية، وحرص على أن ينبه أمته إلى مكانة الحرية في التمدن والعمران، وإلى مميزات النظم الدستورية المقيدة لسلطات حكوماتها

بالقانون، لأن الحرية (كما قال) : « هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالى الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي، وإسعادهم في بلادهم، وكانت سببا في حبهم لأوطانهم، وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا، والحرية، وصيانة النفس، والمال، والعرض، على موجب أحكام شرعية، وأصول مضبوطة مرعية، فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين» .

(٩)

ظل الطهطاوي يدعو إلى المزاوجة بين العدل والعدالة الاجتماعية، وكان يصف العدل بأنه «أصل عمارة الممالك التي لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع منه، وكالصفة من صفاته، وحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشري، إلا إذا صحبها حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان.

في عصر إسماعيل نادى رفاعة الطهطاوي بإصلاح النظام القضائي ، ورأى أن يمهد لهذه الفكرة بتعريب القوانين الفرنسية حتى يمكن الإفادة منها، وكانت هذه هي المهمة التي ندب نفسه في مرحلة من المراحل لها مهمة شاقة تتطلب اطلاعا واسعا على هذه القوانين، وفهما لفلسفتها وغاياتها ولتاريخ وضعها وظروف هذا الوضع وملابساته، كما كانت تتطلب ما كان الطهطاوي مؤهلا له بالفعل من معرفة عالية باللغة العربية، وباللغة القانونية، وبأحكام الشريعة الإسلامية، حتى يمكنه ضبط المصطلحات المطابقة لهذه الشريعة في هذه القوانين.

(١٠)

كانت الوطنية المصرية عند الطهطاوي لا تتعارض مع فكرة العروبة القائمة على عروبة اللغة واللسان، وكان يكرر القول بأن العرب هم خيار الناس، ولسانهم أفصح الألسن، وقد اشتهرت أمة العرب جاهلية وإسلاما بالفضائل، وظل الطهطاوي يرى الوطنية والعروبة في دائرة الانتماء لحضارة الإسلام، وفي هذا الصدد فإنه وهو يكتب التاريخ فسر حروب محمد على باشا ضد الدولة العثمانية، باعتبارها حركة إحياء وتجديد لشباب الدولة الإسلامية الجامعة، ولهذا فإنه كان يقول : إن هذه الحروب لم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، وإنما كان القصد منها: « تنبيه أعضاء ملة

وجنسية عظيمة، تحسبهم أيقاظا وهم رقود! » .

وقد كان الطهطاوي أول شاعر نظم العديد من الأناشيد الوطنية في عصرنا الحديث، وفي أحدها يقول:

من أصل الفطرة للفطن بعد المولي حب الوطن

هبة من الوهاب بها فالحمد لوهاب المنن

(١١)

أما فيما يتعلق بالفلسفات الاقتصادية والاجتماعية فقد كان الطهطاوي حاسمًا وواضحًا في اعتراضه على مبادئ الاشتراكية الخيالية (الطوباوية) الفرنسية، ذات النزعة الوضعية الإلحادية، على نحو ما بشر بها الفيلسوف الفرنسي سان سيمون، وقد عبر بوضوح شديد عن رفضه لفكرة المشاعية والشيوعية أو على نحو ما فهمها بحكم خلفيته الأزهرية من أنها هي المزدكية الفارسية وعند القرامطة القدماء بقوله:

«ومذهب المزدكية يدعو إلى تساوى الناس في الأموال، وأن يشتركوا في النساء، وهو قريب من مذهب القرامطة في أيام الخلفاء، ومن مذهب سان سيمون الجديد بفرنسا، فكان زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين الإنس، على اختلاف الجنس!».

وفي الوقت نفسه فإن رفاعة لم يكن متحمسًا لفكرة الفردية الرأسمالية في صورتها الليبرالية الأوروبية، وإنما كان يدعو إلى نظام اجتماعي متوازن، لا يهمل معيار ملكية رأس المال أو الأراضي الزراعية.

وفي هذا الصدد كان الطهطاوي يدعو إلى تغليب نصيب العمل على نصيب الملكية في عائد الأرض والصناعات والتجارات، وكان يبرر هذا بقوله: إن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد، وإن أعظم حرية في المملكة المتمدنة هي حرية الفلاحة (الزراعة) والتجارة، والصناعة، كما كان يلفت النظر إلى أن العدل هو أساس ما كان يسميه الجمعية التأنسية «المجتمع الإنساني»، والعمران والتمدن.

(١٢)

لقيت آراء رفاعة الطهطاوي الحضارية والتربوية وجهوده الفكرية والسياسية وإنتاجه الأدبي والفكري عناية كثير من الدارسين المعاصرين في عدد كبير من الأطروحات العلمية والكتب

منها:

- د. أحمد أحمد بدوي: رفاعة الطهطاوي بك أحد أركان النهضة العلمية العربية.
- د.محمد محمد إبراهيم يونس: الآراء التربوية في كتابات رفاعة الطهطاوي، رسالة ماجستير بكلية التربية جامعة المنوفية، ١٩٨٣م.
- د . جمال الدين الشيال: رفاعة رافع الطهطاوي، دار المعارف، ١٩٨١م.
- د . عبد الحميد هلال عبد العزيز: شعر الطهطاوي بين التقليد والتجديد، ١٩٨٨ .
- د . أحمد أحمد سيد أحمد: رفاعة رافع الطهطاوي في السودان، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٧٣ .
- د . حسين فوزي النجار: رفاعة الطهطاوي رائد فكر وإمام نهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .
- د . أنور لوقا غبريال: ربع قرن مع رفاعة الطهطاوي، دار المعارف، ١٩٨٥م.

(١٣)

- وكتب عنه أساتذة ومؤرخون ضمن أطر أوسع :

- د . محمد عمارة: مسلمون ثوار.
- نعمان عاشور: صور من البطولة والأبطال.
- نعمان عاشور: رفاعة الطهطاوي، أو بشير التقدم (مسرحية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م .
- د . عمر الدسوقي: في الأدب الحديث.
- د . فتحي رضوان: دور العمائم في تاريخ مصر الحديث.
- د . عبد اللطيف حمزة: أدب المقالة الصحفية.

(١٤)

مؤلفات رفاعة الطهطاوي :

- «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وقد طبع أيضا بعنوان آخر «الديوان النفيس بإيوان باريز، وله طبعات عديدة، وأهم طبعاته هي تلك التي تمت بتحقيق الدكتور محمد مهدي علام وآخرين (١٩٥٨)، وقد طبع هذا الكتاب بمقدمة الدكتور محمود فهمي حجازي باسم «أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي» (١٩٧٤).

- «أنوار توفيق الجليل في أخبار وتوثيق بني إسماعيل» (١٨٦٨)، ويظهر من عنوان هذا الكتاب مدى ولاء الطهطاوي للخديو توفيق، وهو ولاء شبيه بولاء على مبارك الذي أطلق اسم الخديو توفيق على خططه وسماها «الخطط التوفيقية».
- «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» طبع ١٩٧٩ في ثلاثة أجزاء، وقدم لإحدى طبعاته الدكتور فاروق أبو زيد.
- «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» (١٨٦٩).
- «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين» (١٨٧٣).
- «القول السديد في الاجتهاد والتقليد» (١٨٧٠).
- «البدع المتقررة في الشيع المتبررة».
- «قلائد المفاخر في غريب الأوائل والأواخر»، وهو قسمان: الأول: أخلاق الأوروبيين، والثاني: معجم الاصطلاحات الجغرافية والتاريخية» (١٨٣٣).
- «بحث في المذاهب الأربعة».
- «الكواكب النيرة في ليالى أفراح العزيزة المقمرة» (١٢٨٩ هـ).
- «قانون ترتيب ونظام المشيخة البلدية» (١٢٨٣ هـ).
- «القوانين الفرنسية المدنية، والدوائر البلدية، والمحاكمات، والمرافعات، وتحقيق الدعاوي والجنايات» (١٢٨٣ هـ).

(١٥)

ولرفاعة في علوم اللغة العربية:

- «شرح لامية العجم».
- «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية» (١٨٦٩)، وهو كتاب في علم النحو، وقد حققه الدكتور البدراوي زهران ونشره (١٩٨٣) تحت عنوان «رفاعة الطهطاوي ووقفة مع الدراسات العربية الحديثة مع تحقيق نص كتابة التحفة المكتبية».
- «جمال الأجرومية» (١٨٦٣).
- خاتمة «قطر الندى» في النحو.

(١٦)

وقد وضع رفاعة عددًا من الكتب التعليمية في العلوم الأخرى:

- «أرجوزة في علم الكلام»، وهو منظومة شعرية .
- «المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق» (١٨٣٢).
- «مبادئ الهندسة» (١٨٦٧).
- «نبذة في علم سياسات الصحة».
- «أصول الحقوق الطبيعية التي يعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم».
- «نبذة في الميثولوجيا، وهي: جاهلية اليونان وخرافاتهم».
- «مقدمة وطنية مصرية».

وله من المترجمات أيضًا :

- «المنطق» .
- و«روح الشرائع» مونتسيكو.
- «الدستور الفرنسي».

(١٧)

– وله في التاريخ :

- «نبذة في تاريخ الإسكندر الأكبر».
- «تاريخ قدماء المصريين» (١٨٣٨).
- « برهان البيان وبيان البرهان في استكمال واختلال دولة الرومان» (١٢٩٣ هـ).

وله من المترجمات في هذا المجال :

- «بداية القدماء وهداية الحكماء» في تاريخ الشعوب القديمة: بنو إسرائيل، والسريانيين، واليونان والهنود، (١٨٣٨).
- «مواقع الأفلاك في أخبار (أو وقائع) تلماك» (١٨٦٧) تأليف سير جومار.
- «تقويم سنة ١٢٤٤» دومرسيا .
- «المصابيح المنيرة في تواريخ القرون الأخيرة» داغرون، «١٢٦٦ هـ).
- «ثلاث مقالات من كتاب لجندر في علم الهندسة».

(١٨)

- وله في الجغرافيا وما يتصل بها :

- «مقدمة جغرافية طبيعية: (١٨٣٠).
- «التقريبات (أو التعريفات) الشافية لمريد الجغرافية (١٨٣٤).
- «نبذة في علم هيئة الدنيا».
- «ترجمة الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار» (١٨٣٦).
- ترجمة كتاب «ملطبرون» عن الجغرافية العمومية.

(١٩)

- ومما تم إنجازه لرفاعة الطهطاوي بعد وفاته :

- جمع الدكتور طه وادي «ديوان رفاعة رافع الطهطاوي» وحققه وقدم له.
- أصدر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب «نشرة عن كتب رفاعة رافع الطهطاوي» وهي نشرة ببليوجرافية عظيمة القيمة اعتمدنا عليها في هذ الباب في أكثر من موضع .

❊❊❊

- توفى رفاعة رافع الطهطاوي بالقاهرة في ٢٩ من مايو ١٨٧٣ م .

❊❊❊❊❊



الباب الثاني

رمزان للرعاة

الفصل الثالث
على مبارك باشا
(١٨٢٤ ـ ١٨٩٣)

(١)

لقب علي مبارك باشا بأبي التعليم وفي هذا التلقيب جانب كبير من الصواب ، فهو رائد للتعليم المصري الحديث في جوانب كثيرة ، لكن قيمته التي تجعلنا نخصص له بابا من أبواب هذا الكتاب هي أنه صاحب الريادة الكتابة الموسوعية عن مصر ، وهو ما تمثل في كتابه الأشهر « الخطط التوفيقية » بأجزائه العشرين ، وإحيائه لفن الخطط وما يمثله هذا الفن من مقاربة موسوعية للتاريخ والتراث والحاضر والثقافة والأدب ، وهو مع الشيخ محمد عبده وعبد الله فكري أبرز الوجوه الفكرية في القرن التاسع عشر ، كما أنه معهما ومع البارودي والمويلحي والبكري يمثلون أعلام الأدب بمعناه الواسع ، وقيمته الفكرية أعلى من قيمته الهندسية ، وكلتاهما أعلى من قيمته السياسية وإن كان هو – بلغة عصرنا – أبرز شخصية تكنوقراطية بين سياسي القرن التاسع عشر .

(٢)

يعود أكثر ما نعرفه عن سيرته الذاتية إلى ما رواه هو بنفسه من هذه السيرة

وهو يذكر أنه ولد في برنبال وقضى فيها السنوات الأولى من حياته،وكان هو الشقيق الوحيد لسبع شقيقات، كما يذكر أن ظروفا مالية قاسية مرت بعائلته، فهاجرت إلى أكثر من بلد مجاورة، وكان عمره إذ ذاك ست سنوات، وكان قد ابتدأ في تعلم القراءة والكتابة. وكانت «عرب السماعنة» بالشرقية إحدى البلاد التي هاجر إليها في صحبة والده، وكان أهلها أناسا طيبين، ولم يكن عندهم فقهاء، فأنزلوا والده منزل الإكرام والإجلال وانتفعوا منه وانتفع منهم انتفاعا كبيرا، وأصبح مرجعهم في الدين، وكان ـ أي والده ـ رجلا صالحا، متفقها في الدين، حسن الأخلاق، فأحبوه حبا شديدا، وبنوا جامعا خاصا جعلوه إمامه ، وهو يصف والده فيقول: كان والدي جميل الهيئة،أبيض اللون، فصيحا متأدبا، آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه.

(٣)

في فترة اغتراب والده عن قريته عاش على مبارك حياة مضطربة مغتربا حينا، برغم طفولته، وعائدا إلى رحاب أبويه حينا آخر، لكنه استطاع في هذه الفترة أن يتم حفظ القرآن الكريم. وحين شب عوده قليلا مارس أعمالا كثيرة، كان منها العمل كاتبًا في السجن حيث تولى كتابة أسماء المسجونين، فعاملوه كأنه سجين، الأمر الذي دفع به إلى الهرب وممارسة أعمال أخرى كان راتبه الشهري فيها يتراوح بين خمسين قرشا وخمسة وسبعين قرشا .

وانتهى الأمر به إلى الالتحاق بمدرسة قصر العيني، وكانت مدرسة مدنية عادية قبل أن تتحول إلى مدرسة للطب، ومنها انتقل إلى مدرسة أبي زعبل التي انتظم فيها، وقد وصف حالته الدراسية فيها فقال: «كان أثقل الفنون علي وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو، فكنت أراها كالطلاسم، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة»، ولكنه مع الصبر والمثابرة نبغ في الهندسة والحساب، وصار أول فرقته، فوقع عليه الاختيار للالتحاق بمدرسة المهندسخانة، بعد ثلاث سنوات من دراسته في مدرسة أبي زعبل، وقضى في مدرسة الهندسة خمس سنين أخرى، تلقى في أثنائها علوم الجبر والميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات وحساب التفاضل وعلم الفلك الذي كان يقوم بتدريسه محمود باشا الفلكي، والطبوغرافيا، والكيمياء، والطبيعة، والمعادن، والجيولوجيا، والهندسة الوصفية، وقطع الأشجار والأحجار.

ثم هيأت له المقادير السفر إلى أوروبا،وقد رشحه للبعثة سليمان باشا الفرنساوي وكانت البعثة التي ألحق فيها على مبارك للسفر إلى فرنسا تضم عددا من أمراء أسرة محمد علي، ومن بينهم الأمير إسماعيل الذي أصبح خديو مصر، وسافرت البعثة في أخريات عهد محمد علي وبالتحديد سنة ١٨٤٤م أي بعد أن قلمت أظفار والي مصر بمعاهدة لندن ، وأصبح على مبعوثيه أن يفكروا في الحياة المدنية والهندسية لا في الحروب والعسكرية.

(٤)

وفي فرنسا تعلم اللغة الفرنسية، وبعد سنتين من البعثة ألحق بمدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بمدرسة ميتس، ومنح رتبة الملازم الثاني، وقضى في تلك المدرسة سنتين

تعلم خلالها فن الاستحكامات الخفيفة والثقيلة والعمارات المائية والهوائية، عسكرية ومدنية، والألغام وفنون الحرب .

وشاء حظه الحسن أن يكون القائد إبراهيم باشا بن محمد على في باريس عندما عقد الامتحان النهائي لهؤلاء المبعوثين ومنهم ولده الأمير إسماعيل، وكان ترتيب علي باشا مبارك الأول بين الناجحين، وقد سلمه إبراهيم باشا بيده هدية التفوق ، وعاد بعدها إلى مصر في أثناء عهد عباس باشا الأول ، وبعد عودته اشتغل ياورا لسليمان باشا الفرنساوي أركان حرب الجيوش المصرية.

(٥)

وقد أجاد علي مبارك نفسه تصوير اللحظة التي حدث فيها لقاؤه بأمه عند باب خشبي، إذ كانت الأم تمسك بيدها المسرجة وهي تفتح الباب لترى في الضوء الخافت ضابطا واقفا أمامها، فتصرخ رعبا، لأن الضباط والعساكر لا يذهبون إلى البيوت في ظلم الليل إلا للشر.

لكن الشاب الذي كان يدرك هذا المعني قال لأمه: أنا علي.. أنا علي.

فصاحت الأم وهي تقترب بالمسرجة في يدها نحو وجهه: علي.. ابني؟

ثم اطمأن قلبها، وتبدل الفزع إلى فرح، ووضعت المسرجة على الجدار ورفعت كفها إلى فمها وزغردت، فقد أصبحت بين أحضان ولدها العائد من فرنسا.

واستيقظت قرية «برنبال» على أصوات الزغاريد، وحمل الفلاحون فوانيسهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم، واتجهوا نحو بيت على مبارك.

(٦)

ترقى على مبارك في سلم العسكرية المصرية حتى وصل إلى رتبة أميرالاي، ولما نشبت الحرب التركية ـ الروسية المعروفة بحرب القرم سافر إلى تركيا واختير مع القوات المصرية التي سافرت لهذه الحرب ، وزار في طريقه المدن التركية، وبعد عامين عاد من رحلته تلك مزودا بفنون الحرب، وعلوم السلام.

وبعد عودته من حرب القرم عين ناظرا للقناطر الخيرية، وأجرى فيها إصلاحات

كثيرة ثم عهد إليه تباعًا بمهام رفيعة المستوى، فعهد إليه بإدارة السكك الحديدية المصرية، وإدارة ديوان المدارس (وهو نواة وزارة المعارف)، وديوان الأشغال العمومية ثم أصبح كما نعرف وزيرًا للمعارف وللأشغال والأوقاف ، وهو بهذا قد تولى نصف الوزارات الأولى أو القديمة .

(٧)

عندما اختير على مبارك ناظرا لمدرسة المهندسخانة بدأ أولى خطوات تعريب العلوم الهندسية والعلوم الطبيعية المتصلة بها (كالرياضيات والفيزيقيا) في العصر الحديث حيث قرر تأليف الكتب المدرسية باللغة العربية، حتى أصبحت كل العلوم الهندسية والعسكرية تدرس بالعربية، وأنشأ مطبعة خاصة لمدرسة المهندسخانة طبع فيها أكثر من ستين ألف نسخة من هذه الكتب.

وقد تصادف أن حدث خلل في القناطر الخيرية وأوشكت الدلتا كلها أن تتعرض للغرق، وعجز المهندسون الفرنسيون عن إصلاح الخلل، وتقدم على مبارك بمشروعه لإصلاح القناطر، ولم يقتنع الخديو إسماعيل عندما عرض عليه المشروع، فعقد اجتماعا حضره المهندسون الفرنسيون وحضره على مبارك واستعرضوا وجهات النظر المختلفة، وأقر الفرنسيون مشروع على مبارك، واعترفوا له، ثم تولى بنفسه إصلاح الخلل، وأنقذ دلتا النيل من الغرق.

(٨)

وفي أثناء تولي علي مبارك إدارة السكك الحديدية أراد إسماعيل باشا المفتش (الذي كان مسؤولاً عن المالية في عهد الخديو إسماعيل) إضافة إيرادات السكك الحديدية إلى وزارة المالية، فرفض على باشا مبارك ونجح إسماعيل المفتش في الوشاية به عند الخديو إسماعيل الذي فصله من كل وظائفه، رغم زمالتهما السابقة في أثناء تلقي العلم في باريس ، ثم لم يلبث الخديو أن أعاده إليها بعد أن عجز خلفاؤه عن إدارتها.

والواقع أن على مبارك كان مهندسا على المستوى العالمي، وهو صاحب فكرة النمط القياسي التي كان حريصا على أن يجعلها بمثابة فلسفته المعمارية في المباني العامة، وقد

استخدمها بالفعل في إنشاء محطات السكك الحديدية عندما تولى أمرها، فجعل كل المحطات على نسق معماري واحد في كل البلاد بحيث تؤدي الخدمات على خير وجه، مع اختلاف أحجامها في المدن الكبيرة أو الصغيرة.

كان على مبارك قد شرع في إدخال نظام المجاري أو الصرف الصحي، فسافر إلى فرنسا ودرس هذا النظام على الطبيعة هناك حتى ينفذه في القاهرة، ولكن نهاية دولة إسماعيل الطامحة لم تتح له أن ينفذ مشروعه .

(٩)

ونأتي إلى إصلاحاته التعليمية المبكرة التي شملت إنشاء مدارس للبنات لأول مرة في مصر، فهو الذي أنشأ المدرسة السنية للبنات ، وخصص فيها قاعات للرسم والتدبير المنزلي والموسيقي.

وفي صعيد التعليم العالي فقد كان هو الذي تولى إنشاء مدرسة دار العلوم وصاغ مناهجها وشخصيتها بكل ما تمثله من محاولة جادة لتطوير معاهد تدريس الدين الإسلامي وعلوم اللغة العربية المتصلة به .

وأنشأ على مبارك أربع مؤسسات كان لابد من وجودها لنشر الثقافة العلمية وخدمة النهضة الموسوعية من خلال قواعد أو بنية أساسية قوية:

فهو الذي أنشأ «الإنفتياتر»، وهو مدرج المحاضرات العامة، وكان هذا المدرج في درب الجماميز، وله مواسم للمحاضرات التي يلقيها كبار الأساتذة، وكان هو نفسه يحضر هذه المحاضرات، مما شجع الباشوات والوجهاء والعامة على الحضور، وسعى المثقفون المصريون للانتظام في حضور هذه المحاضرات، فكان هذا المدرج يمثل نواة حقيقية لجامعة حرة قامت بدور هام في حركة النهضة العلمية والثقافية.

وفي درب الجماميز أيضًا أنشأ علي مبارك المؤسسة الثانية وهي معمل الكيمياء والطبيعة، وهو بمثابة متحف علمي حي يتيح العلم التفاعلي لهواة العلم والمعرفة . وفتح أبواب هذا المعمل للتلاميذ حتى يكونوا على صلة دائمة بالتطورات العلمية الحديثة.

وقبل هاتين المؤسستين كان علي مبارك هو الذي أسس دار الكتب الخديوية لتكون بمثابة المكتبة الوطنية لمصر .

ويتصل بهذه المؤسسات مؤسسة رابعة تتمثل في الصحافة المدرسية أو العلمية ، وقد كان علي مبارك رائدها فهو أنشأ مجلة «روضة المدارس» على نفقة وزارة المعارف، وجعل منها نافذة جديدة للفكر المستنير.

(١٠)

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن علي مبارك كان قد درس مناهج التعليم في فرنسا معرفة كاملة، حتى أنه عندما كان وزيرا للمعارف راجع هذه المناهج وأعاد دراستها بفكر متفتح وعقل ناضج، ثم وضع بعد ذلك مناهج التعليم في المدارس المصرية الابتدائية والثانوية، وظلت هذه المناهج سائدة في مصر أكثر من مائة سنة، وخرجت الأجيال المتعاقبة من المتعلمين المصريين.

وتقديرا لكل هذه الجهود منحه الخديو إسماعيل كثيرًا من الرتب والأوسمة كما منح رتبة الباشوية ، واستمر الخديو توفيق على نهج والده في تقدير علي مبارك .

ومع كل هذه الإصلاحات فقد كان أثره في مدرسة الطب (قصر العيني) أقرب ما يكون إلى أن ينال الوصف الشائع أنه كان أثرًا تدميريًا أو مدمرًا، وقد أوذيت الكلية في عهده إيذاء شديدًا على نحو ما نقلنا عن علي باشا إبراهيم في كتابنا عنه.

ولما قامت الثورة العرابية كان من الذين وقفوا مع الخديو ضد عرابي ولهذا فإنه في عهد الثورة العرابية أبعد عن السلطة.

(١١)

كان على مبارك واحدًا من أعضاء مجلس النظار الأول الذي تشكل برياسة نوبار باشا في أغسطس ١٨٧٨ ، وقد أسندت إليه فيه وزارتا الأوقاف والمعارف العمومية ، كما أسندت إليه وزارة الأشغال بالنيابة ، أي أنه دونا عن زملائه الوزراء تولى ٣ وزارات .

وفي مارس ١٨٧٩ اشترك في الوزارة الثانية التي رأسها الأمير محمد توفيق وزيرًا للأوقاف والمعارف أيضا ، وفي سبتمبر ١٨٧٩ عاد لتولي وزارة الأشغال العمومية في وزارة رياض باشا ، وكذلك في أغسطس ١٨٨٢ في وزارة شريف باشا ، وكان آخر عهده بالوزارات توليه وزارة المعارف في يونيو ١٩٨٨ في وزارة رياض باشا الثانية.

(١٢)

ونأتي إلى إنتاجه الفكري ؛ فأما كتابه الأشهر «الخطط التوفيقية» فهو من أبرز كتب الإنتاج العربي في ميدان الموسوعات، ذلك أنه يحوى من فنون المعرفة والأدب من شعر ونثر، والتاريخ بمختلف ميادينه وعصوره، والجغرافيا والبلدان والتراجم والهندسة بفنونها وعلوم الحرب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والتربية والسياسة وفنون الحكم، وهو في وقته وزمانه يمثل مفخرة علمية من مفاخر علماء العرب والمسلمين.

وهو المرجع الأول للتأريخ لبدايات الحضارة المصرية الحديثة في كل مجالاتها العمرانية والفكرية أو الثقافية، ولولا ما احتواه هذا الكتاب ما عرفنا تاريخ حياة كثيرين من عظماء مصر وبناة حضارتها.

وقد اختار على مبارك لكتابه عنوانا طويلا هو «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، وقد عبر على مبارك باسم هذا الكتاب عن حرصه على الوفاء للخديو توفيق حاكم مصر إبان تأليفه هذا الكتاب، وقد كان على مبارك بشجاعته وقوة شخصيته حريصا على إعلان هذا الولاء والوفاء على الرغم من اختلاف الآراء في الحكم على الخديو توفيق، وعلى الرغم من أن أكثر الكتاب لا يزالون يميلون إلى تجريحه في وطنيته.

(١٣)

تدلنا الخطط التوفيقية على شغف على مبارك بتاريخ مصر، وإعجابه وحبه لأساليب التأليف القديمة في التاريخ وبخاصة تلك التي اشتهر بها المؤرخون الذين جعلوا «الخطط» مدخلا لكتبهم في الحديث عن التاريخ العام والتاريخ الحضاري والعمراني، وفي مقدمة هؤلاء: المقريزي صاحب أشهر في هذه السلسلة الممتدة من مؤلفات المؤرخين العرب، وليس ثمة شك في أن على مبارك تأثر بالمقريزي بكل وضوح.

وعلى مدى صفحات هذا الكتاب يعبر على مبارك عن حبه لمدينة القاهرة واحتفاله بها، من حيث تاريخها القديم والوسيط والحديث، وآثارها، ومساجدها، ومدارسها، وأحيائها وشوارعها، وعلمائها، وأوليائها، والزوايا والخانقاوات والكنائس والأديرة، والأضرحة، والحمامات، والحواري والدروب، وقد خصص للقاهرة الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه

وخصص الجزء السابع بأكمله لمدينة الإسكندرية، وعلى هذا النحو مضى في التعريف بمدن مصر الأخرى، والقرى والنجوع، مهما عظم شأنها، أو ضؤل حجمها.

(١٤)

كانت عناية علي باشا مبارك بالقرية المصرية لا تقل عن عنايته بالمدن، ولم يكن تشابه أسماء العشرات من القرى حاجزا دون انطلاقه في وصفها والعناية بها، وقد درس الأسماء المتكررة للقرى والبلاد وذكر تكراراتها المختلفة في قرى مصر ومدنها (منية، وشبرا، وزاوية، ومحلة، وكوم، وسفط) وهو الجهد العظيم الذي أفاد منه فيما بعد ذلك الأستاذ محمد رمزي ، وأضاف إليه على نحو ما أشرنا في كتابنا «النجوم المتعاقبة» .

* منية وجمعها مُنى الميم، وقد حرف العوام نطق بعضها إلى ميت بكسر الميم، ثم ياء ثم تاء، وقد أورد علي باشا مبارك مائة وستا وسبعين مدينة وقرية تحمل هذا الاسم.

* وإحدى وأربعين قرية تحمل اسم «شبرا»، مضافا إليها اسما يميزها عن غيرها، وشبرا اسم فرعوني بمعني محلة أو بلد.

* ومن القرى التي تحمل اسم «زاوية» أورد المؤلف أسماء ثلاثا وثلاثين بلدة.

* وهناك عدد كبير من المدن والقرى يحمل اسم «محلة»، وقد أورد منها اثنتين وثلاثين بلدة من أشهرها المحلة الكبرى.

* وهناك أيضا «الكفور» جمع كفر، وقد أورد المؤلف أسماء ستة عشر كفرا.

* كذلك ذكر ست عشرة بلدة تحمل اسم «سفط».

وكان علي باشا مبارك حريصًا على أن يذكر علماء كل بلدة، وأعيانها، مهما كان عددهم، ومهما اختلفت فنونهم.

(١٥)

وفي «الخطط التوفيقية» وصف علي مبارك قريته الصغيرة «برنبال الجديدة» فقال: «إن بها مسجدا ومنزلا بناه والده، وفيها أربع مضايف ومضيفة حسنة لبعض أكابرها، ومعملان للدجاج للتفريخ، ومصبغتان، وأربعة أنوال لنسج الصوف، وعشر طواحين، ودكان واحدة

تباع فيها العقاقير، وضريح ولي يسمي «عيسى»، وفيها وابوران، وباعة يبيعون الخس والفسيخ ونحو ذلك، ونواتية، ونجار، ومكتب لتعليم القرآن، وحاراتها أربع ممتدة من الشرق إلى الغرب على استقامة واحدة، وليس بها من الأشجار إلا نخلتان...».

(١٦)

ولعلي مبارك بالإضافة إلى الخطط التوفيقية عدد من المؤلفات المهمة :

● سيرته الذاتية أو ما تقبلناه وتناقلناه على أنه سيرته الذاتية : «علم الدين» في ثلاثة مجلدات ، وقد تناولناه في موضع آخر من كتاباتنا عن السير الذاتية .

- و «**حقائق الأخبار في أوصاف البحار**» .
- و «**خواص الأعداد**»، وكلا الكتابين الأخيرين كتاب مدرسي .
- و «**نخبة الفكر في نيل مصر**».
- و«**تذكرة المهندسين**» .
- «**تقريب الهندسة وجغرافية مصر**» .
- «**الميزان في الأقيسة والمكاييل والأوزان**» .

(١٧)

وقد أسهم علي مبارك في ترجمة بعض الكتب الفرنسية الكبرى، وفي مقدمتها كتاب «**خلاصة تاريخ العرب**» للمستشرف الفرنسي سيديو.

(١٨)

كتب الدكتور محمد درى الحكيم عن سيرة علي مبارك كتابة ممتازة أشرنا إليها في كتابنا «**النجوم المتعاقبة في كتابة تاريخ مصر المعاصر**» ، وكتب عنه آخرون كتابات متعددة، وإن اختلفت زوايا تقديرهم لفضله وفهمه وإنجازه .

*****

الفصل الرابع
عبد الله فكري باشا
(١٨٣٤ ـ ١٨٩٠)

(١)

يعود معظم الفضل في الانتباه إلى أهمية كتابة تاريخ عبد الله باشا فكري، بل والبدء في كتابة هذا التاريخ إلى الأستاذ الإمام الأستاذ محمد عبده، أما كتابة سيرة حياته على نحو موسع فقد اضطلع بها الأستاذ محمد عبد الغني حسن.

كان عبد الله فكري بمثابة أبرز الأدباء في القرن التاسع عشر، وكان شاعرًا تقليديًا، وناثرًا مجددًا، وكان رجل علم، وصاحب دور في الحياة العامة، وهو الذي تصدى لتحقيق آمال الأستاذ الإمام محمد عبده في الإصلاح والتقدم وسط لهيب النار في الثورة العرابية، على الرغم من الاختلاف الدقيق في موقف كل منهما من هذه الثورة على نحو ما سنرى.

(٢)

ذكر جورجي زيدان نسبه على النحو التالي: «عبد الله باشا فكري بن محمد أفندي بليغ بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد»،

وذكر أن جده الشيخ عبد الله كان من العلماء المدرسين في الجامع الأزهر، وكان مالكي المذهب، وقد أخذ العلم عن الشيخ عبد العليم الفيومي وغيره، وكان مقيما في مصر حين قدمت الحملة الفرنسية، فلما أساؤوا معاملة العلماء رحل إلى منية خصيب (هي المعروفة الآن باسم: المنيا) فأقام بها مدة ثم عاد إلى القاهرة، وعكف على الاشتغال بالعلم حتى توفي .

أما الوالد محمد أفندي بليغ فقد درس في المدرسة الحربية، وانتظم في خدمة الجيش وترقى إلى رتبة «صاغ قول أغاسي»، وقد حضر في أثناء خدمته عدة مواقع حربية أهمها حرب المورة، وكانت لهذه الموقعة أهمية شخصية في حياته حيث تزوج فيها زوجته التي أنجبت له ابنه عبد الله، وقد تصادف أن ولادته تمت في مكة المكرمة التي كان والداه قد

انتقلا إليها لظروف عمل الوالد .

تربى عبد الله باشا فكري وتنقل مع والده محمد أفندي بليغ الذي عاد إلى القاهرة وظل في خدمة الحكومة ، حتى نال منصب باشمهندس الشرقية، ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة.

ويشير عبد المنعم شميس إلى أن اسمه المركب عبد الله فكري كتب هكذا بمعرفة السلطة الحاكمة، وقد كان من تقاليد ذلك العصر أن هذه الأسماء كانت تمنح للموظفين مع قرار تعيينهم في وظائفهم، فهي أسماء مزدوجة لا علاقة بها بالآباء والأجداد، وكأنها أسماء شهرة، أو كأنها الأسماء الفنية التي يعرف بها النجوم في السينما والمسرح.

ومن الطريف أن سنة ولادته (في التاريخ الهجري) وافقت بحساب الجمل (الذي كان مستعملًا بكثرة في زمنه) مجموع جمل الآية القرآنية ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم:٣٠] ، وقد وافق هذا اشتهاره بالعلم والفضل، ونبوغه في فنون الكتابة نثرا ونظما، وقد أعجب هو نفسه بهذا الاتفاق فلما شبّ وتعلم جعل من هذه الآية شعارًا له ونقشها على خاتم له كان يختم به كتبه.

ويشير الأستاذ العقاد إلى أن سلوك عبد الله فكري في اتخاذه خاتما كان صدى لشارات الكتاب وذوي المناصب الوزارية في أيام العباسيين ، ومن حذا حذوهم من الفاطميين والأيوبيين.

(٣)

توفي والده وهو لم يتجاوز الحادية عشرة، وتولى بعض أقارب أبيه تربيته، وكان قد بدأ يتعلم القرآن الكريم فأتمه وجوده، ثم طلب العلم في الجامع الأزهر الشريف، ودرس العلوم المتداولة: اللغة والفقه والحديث والتفسير والعقائد والمنطق ؛ وكان من أساتذته: الشيخ إبراهيم السقا، والشيخ محمد عليش، والشيخ حسن البلتاني .

وقد تلقى بالتوازي لدراسته في الأزهر دروسًا في اللغة التركية حتى أتقنها، وقد ساعده على إتقان التركية أن والدته كانت كما ذكرنا من بلاد المورة .

وقد أهله تعليمه المتميز لأن ينال وظيفة في القلم التركي فيما سمي بالديوان

الكتخدائي، وظل بعد نواله هذه الوظيفة مواصلًا طلب العلم في الأزهر فيما قبل ذهابه للعمل في الديوان وبعد رجوعه منه.

وقد كان هذا النموذج من عارفي اللغتين العربية والتركية مطلوبًا في دولة محمد على وخلفائه، لذلك كان عبد الله فكري مؤهلًا من البداية للوصول إلى المناصب الرفيعة، غير أن هذه المناصب لم تكن هي السبب في شهرته، فقد كانت له مواهب خاصة جعلته أديبا شاعرا كاتبا، كما أنه كان يتقن اللغة الفارسية أيضا إلى جانب العربية والتركية.

(٤)

أجاد الأستاذ العقاد تصوير البيئة التي نشأت فيها موهبة عبد الله فكري، وأرجع هذا إلى ما شهدته القاهرة من قيام إمارة حديثة في أوائل القرن التاسع عشر، وأن هذه الإمارة (يقصد إمارة محمد على وأولاده من بعده): «قامت معها دواوين شتى بعضها للحكم والسياسة، وبعضها للكتابة والتعليم وما اقتضاه هذا من عودة الذكري بالأدباء من طلاب الوظائف الديوانية إلى مأثورات القاهرة في عهد صلاح الدين وإخوانه من ملوك الدولة الأيوبية، وأصبح القاضي الفاضل وابن مطروح وبهاء الدين زهير قدوة مأمولة لكل موظف أديب متطلع إلى رئاسة الإنشاء ، وما إليها من الدواوين العالية، وأصبحت الرسالة المسجوعة والطرائف المنظومة وحل الألغاز ووصف البساتين والنفائس والرياضات التي تعودها السراة القاهريون وشاع النظم فيها بين الأدباء من عهد الدولة الأيوبية، عنوانا لظرف الظريف، وسمت الوزير الناثر، وشارة النديم المصاحب للملوك والأمراء، ونشأ بين وزراء المصريين طائفة تشبه وزراء الأيوبيين والعباسيين من قبلهم في النشأة والثقافة والمروءة والمكانة. فهم إما معلمون لولاة العهود، أو كتاب ومشيرون لأصحاب العروش».

«وهؤلاء الأدباء الوزراء أو المتطلعون إلى مناصب الوزارة والرئاسة هم الذين طولوا أيام البقاء لأدب «الرسائل والجناسات والألغاز» حتى قضت عليه مدرسة الداعين إلى العربية الأولى، ومدرسة الداعين إلى أدب الطبع في وقت واحد، لأن أدب الرسائل والجناسات والألغاز كان هو الأدب المختار عند أمثال القاضي الفاضل، وابن مطروح، والطبقة التي تمادت بعدهم على هذه الطريقة، وكانت هذه الطبقة قدوة «الديوانيين» من أدباء الإمارة الحديثة».

(٥)

على هذا النحو نستطيع أن نفهم البدايات التي صادفها عبد الله فكري وهو يكون نفسه لمجد متوقع أو أمل مطموح اليه في وظائف الدولة وفي كيانها.

وقد تنقل عبد الله فكري ما بين الديوان الكتخدي ثم ديوان المحافظة ثم ديوان الداخلية بصفة مترجم، ثم ألحق بالمعية السنية في عهد سعيد باشا، وبقي فيها حتى تولى الخديو إسماعيل الحكم فأبقاه في معيته وسافر معه إلى الآستانة في زيارته التي استهدفت تغيير قاعدة تقليد الولاية وأداء الشكر للحضرة السلطانية، كما رافقه في أكثر رحلاته، كما سافر إلى الآستانة أكثر من مرة مع الخديو، وسافر أيضًا مع أسرته، وفي مهمات أخرى، وقد نال الرتبة الثانية مع لقب بك.

وفي عهد الخديو إسماعيل ايضا اختير عبد الله فكري مدرسا لأمراء الأسرة الحاكمة(!!) ومنهم ولي العهد (محمد توفيق) وأخواه حسن وحسين وغيرهم من أمراء أسرة محمد علي، وبذلك أصبح يدخل من باب قصر عابدين، وأصبح من أقرب المقربين للخديو. وسرعان ما أصبح أستاذ الأمراء ومعلمهم واحدا من كبار المعلمين في عصره، وكان الخديو قد قلده المسؤولية عن الدروس الشرقية، وهي العربية والتركية والفارسية.

وكان عبد الله فكري يتولى مهمة التعليم بنفسه أحيانًا، وفي أحيان أخرى كان يقوم بمراقبة غيره من المعلمين وملاحظة إلقاء الدروس وتقويم طريقة التعليم.

(٦)

وبعد فترة من عمله في المعية نُقل للعمل في ديوان المالية ، لكنه لم يعين في وظيفة محددة، بيد أنه سرعان ما عهد إليه بالنظر في تقييم الاستفادة من الكتب التي كانت محفوظة في الديوان على ذمة الحكومة، وبعد دراسة هذه الكتب رفع تقريرا مفصلا ضمنه بيانها وما رآه في حالها ، وذكر في تقريره أن بقاءها على حالتها لا يمكن من حفظها، ولا من الانتفاع بها، وأشار بلزوم جعلها على هيئة ينتفع بها الناس إما بإنشاء «محل خاص تنقل إليه ويجعل فيه ما فيه الكفاءة لها من الخزائن وتوضع به على الوضع الموافق، وإما بإحالتها على المدارس لتودع في المكتبة الجاري إنشاؤها بمساعي المرحوم على باشا مبارك

ناظر المعارف إذ ذاك»، وقد حبذ الوجه الثاني، وهكذا كان له فضل كبير في استنقاذ تلك المجموعة من الكتب النفسية من زوايا الخمول والإهمال، وترتيبها ترتيبا حسنا في دار الكتب الملكية الشهيرة.

وفي هذه الفترة كان المجلس الخصوصي إذ ذاك (وهو ما صار بعد ذلك مجلس النظار) يعمل في جمع اللوائح والقوانين وتنقيحها وتعديلها، فعهد إلى عبد الله فكري بالمساعدة في ذلك العمل فتسلم القوانين واللوائح التركية وأخذ في إعادة صياغتها وتنقيحها، وقد أثبت نجاحا في هذا العمل، أضاف به إلى قدراته الأدبية وإلى دوره في خدمة أسلوب الكتابة العربية وتوطئته للحضارة .

(٧)

وفي ١٨٧١ كان أول عهد عبد الله فكري بالعمل في إدارة أمور التربية والتعليم، حيث عين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية تحت رئاسة على باشا مبارك،وفي هذه الفترة ظهرت مواهبه وتأكدت: موظفا متيقظا نشيطا، عارفا بكل صغيرة وكبيرة، وكأنها كانت هذه الفترة فرصة إعداد وتدريب ليكون ناظرا أو وزيرا للمعارف على نحو ما حدث بعد ذلك بما يزيد قليلا على عشر سنين.

وفي هذه الفترة بدأت علاقته بعلى مبارك، وهي العلاقة التي ظلت وثيقة .

وقد تأثر عبد الله فكري بأفكار على مبارك في التعليم قبل أن يعرف الشيخ محمد عبده ويطعم أفكاره بأفكاره، وفي هذه الفترة أصبح عبد الله فكري بمثابة الرجل الثاني بين رجال الدولة المسؤولين عن المعارف، وكان على باشا مبارك يعد في ذلك الوقت «أبا للتعليم»في مصر.

ويذكر لعبد الله فكري نجاحه في رفع مستوى المكاتب الأهلية في عهد وكالته لديوانها، كما يذكر له تعديله لبرامجها بعد أن كانت نوعًا من الكتاتيب، وهو ما أدى إلى إقبال الناس على إدخال أبنائهم فيها، لأنهم وجدوا فيها شيئا جديدا مفيدا لم تألفه البلاد من قبل.

وقد لخص الشيخ محمد عبده الإشادة بجهد عبد الله فكري في هذه الفترة حيث يقول:

«وكانت المكاتب أول ما تولاها (الضمير يعود على عبد الله فكري) في أدنى درجة من

النظام، ولم تكن إلا من النمط الذي يسمى الآن كتاتيب، ثم ارتقت في عهده إلى أن صارت حافلة بمبادئ العلوم النافعة، خصوصا العلوم العربية التي رفع منارها وأعلى شأنها، وجعل أسلوب تعليمها على الطريقة المؤدية إلى الغرض من دراستها، فوضعت القوانين لسير التعليم في تلك المكاتب، ورتبت دروسها على الوجه الموصل إلى الغاية منها، ورسخت في الانتظام قواعدها، وظهرت للعامة والخاصة فوائدها، وأقبل الناس عليها وانثالوا بأبنائهم إليها، حتى أصبحت حافلة بالتلامذة، يتولى أدبهم أفضل الأساتذة، وصارت مادة غذاء للمدارس الأميرية (يقصد أنها صارت رافدًا من روافد تغذية هذه المدارس بالمتعلمين المستحقين للتعلم) ، وسلما يرقى عليه إلى المدارس الخصوصية».

(٨)

وفي ١٨٧٦ عين عبد الله فكري وكيلا لديوان المعارف العمومية، وكان ناظرها حينذاك هو رياض باشا، وقد حقق محمد عبد الغني حسن تاريخ توليه هذا المنصب مصححًا ما ذكره جورجي زيدان، وتابعه فيه المؤرخ عبد الرحمن الرافعي أن عبد الله فكري عين وكيلا للمعارف (١٨٧٩)، وقد نقلا المؤرخان العظيمان (زيدان والرافعي) هذا عن كاتب سيرة عبد الله فكري في مجلة «المقتطف» (١٨٩١)، ولكن محمد عبد الغني حسن اكتشف أن هذا يخالف دليلا تاريخيا آخر قويا، وهو أن عبد الله فكري كتب بحثه عن «العلوم الطبيعية والنصوص الشرعية» في الجزء العاشر من السنة الأولى من المقتطف (١٨٧٦)، وقدمت المجلة للبحث بأنه «من قلم وكيل رياض باشا في نظارة المعارف، العالم الشهير عبد الله فكري» .

ومن الإنصاف أن نضيف إلى التصحيح تصويبًا آخر وهو أن المعارف في ذلك الوقت كانت ديوانًا إذا لم يكن مجلس النظار قد تأسس إلا في ١٨٧٨ .

وهكذا يعود الفضل في اختياره وكيلا للمعارف إلى مصطفى رياض باشا حين كان ناظرًا لها (١٨٧٦)، وهو الذي اختاره وكيلا للمعارف، وإن نسب هذا الفضل خطأ إلى علي مبارك، وليس هذا بخطأ كامل كما صوره الأستاذ محمد عبد الغني حسن ، وإنما هي معلومة لها نصيب من الصواب ، فقد كان عبد الله فكري وكيلاً لمصطفى رياض في ديوان المعارف كما كان وكيلاً لعلي مبارك في نظارة المعارف ، ومما يسهل الاختلاط في مثل هذا

الأمر أن عبد الله فكري عمل من قبل وكيلا لعلى مبارك في إدارة المكاتب، كذلك فإنه أصبح وكيلا للمعارف في عهده حين أصبح على مبارك باشا ناظرًا للمعارف (أغسطس ١٨٧٨)، عند بداية تشكيل النظارات المصرية وقد كان عبد الله فكري لايزال وكيلا للمعارف فاستبقاه في هذا الموقع، وهو الذي كان قد عمل معه وكيلًا للمكاتب من قبل، وهكذا جمع العمل بين الرجلين الكبيرين مرة بعد أخرى، كما جمعت بينهما الصداقة المتجددة.

وفي هذه الفترة نال عبد الله فكري رتبة ميرميران الرفيعة.

(٩)

وفي مارس ١٨٨١ صدر مرسوم بإنشاء المجلس الأعلى للمعارف وتحددت مهامه في إبداء الرأي فيما يخص سياسة التعليم ومشروعاته، وإنشاء المدارس الجديدة، ونظام المدارس عامة.

وقد تشكل هذا المجلس برئاسة ناظر المعارف حينذاك على باشا إبراهيم (وهو ذلك الوزير القديم الذي يطلق عليه كاتب هذه السطور في تحقيقاته التاريخية اسم علي باشا ابراهيم الأول وذلك تمييزًا له عن على باشا ابراهيم (الثاني) رائد الطب المصري الحديث)، وعضوية أربعة وعشرين عضوًا من رجال العلم والفكر والأدب و الدين والقضاء والطب والمعلمين، واختير عبد الله فكري باشا، وكيل وزارة المعارف عضوا في هذا المجلس، وكان من أعضاء المجلس: على مبارك باشا، وكان يشغل حينذاك منصب ناظر الأشغال العمومية بعد أن ترك المعارف التي كان يجمع بينها وبين الاشتغال .

والواقع أن اشتراك عبد الله فكري في هذا المجلس الجديد قد أعده ـ بجانب عمله في وكالة المعارف للإلمام الواسع بحاجات التعليم في البلاد، وفي وضع التصور الكفيل بالارتقاء بالحياة التعليمية لمصر على نحو ممكن من خلال الموارد المحدودة والرغبات الطموحة إلى التقدم.

فلما جاءت وزارة محمود سامي البارودي الشاعر الفارس الأديب ، وكان عليه وعلى مؤيدي عرابي أن يختاروا من الوزراء مَنْ يطمئن إليهم قادة الحركة الوطنية، مع مراعاة

إرضاء الشعور الوطني الذي أخذ يظهر بشكل واضح بعد أزمة يناير (١٨٨٢)، وبعد مذكرة إنجلترا وفرنسا إلى مصر كان اسم عبد الله فكري في قائمة المرشحين للوزارة. واستقر رأي النواب الخمسة عشر الذين اجتمعوا في سراي البارودي، على الوزراء الذين رئي إدخالهم في الوزارة، وكان بينهم عبد الله فكري الذي اختير لتولى وزارة المعارف (٤ من فبراير ١٨٨٢م).

(١٠)

ومن الجدير بالذكر أن عبد الله فكري نفسه اختار لوكالة الوزارة [في عهده هو كوزير] على فهمي رفاعة باشا، الذي هو ابن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، وكان على رفاعة باشا رجلًا من البارزين بعلمهم وشخصهم، ولم يكن غريبًا على عبد الله فكري ولا جديدًا عليه، فقد عقد الود بينهما أمتن أواصره، وقد حفظ التاريخ رسائل إخوانية للرجلين تدل على صدق المودة، وارتفاع الكلفة، وقد زادت هذه المودة بعدما جمعهما العمل الواحد في وزارة واحدة.

(١١)

وقد تعددت الروايات في شأن حقيقة موقف عبد الله فكري من الثورة العرابية، وهو الذي كان واحدًا من وزراء الثورة، ونحن نميل بعد أن فحصنا هذه الروايات إلى ما رآه محمد عبد الغني حسن بعد تحقيق من أن عبد الله فكري لم يكن عرابيًا، ولا من أنصار عرابي، وإنما كان محل ثقة العرابيين، وربما يرى بعض القراء غرابة في مثل هذا الرأي فكيف لوزير في وزارة الثورة أن يكون بعيدًا عنها أو متحفظا عليها، ولست أحب أن أدعي القدرة على الوصول إلى ما لم يصل إليه أحد، وقد سبقني الأستاذ محمد عبد الغني حسن إلى تحقيق الأمر على نحو دقيق، لكني أكتفي بأن أذكر القراء على سبيل المثال أن مصطفى فهمي باشا (والد صفية زغلول زوجة سعد زغلول) الذي كان معروفًا على أنه رجل الإنجليز كان وزيرًا في هذه الوزارة!! وزارة الثورة العرابية .

(١٢)

ومن الواضح أن عبد الله فكري لم يكن من أعداء الثورة العرابية، ولا من المتآمرين عليها، وإنما كان أقرب إليها من كثيرين، بل كان مؤيدًا لتوجهاتها، وقد نال ثقة العرابيين مرة واثنتين وثلاثة، وقد جاءته هذه الثقة كرجل وطني لاشك في وطنيته كما جاءت بداياتها نتيجة اختبار فرضته الظروف والحوادث فيما قبل الثورة، وكان هذا الاختبار هو موقفه من التحقيق مع الشيخ محمد المهدي شيخ الأزهر.

ولهذا قصة، فقد كان غرض العرابيين في وزارة شريف أن يتخلصوا من معارضيهم ومخالفيهم في سياستهم حتى يخلو الجو لهم ، وكان الشيخ محمد العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر على رأس المعارضين لهم، والتمس العرابيون الأسباب لعزل الشيخ من المشيخة، وأخذوا يكثرون من الشكايات التي اصطنعوها من رجال الأزهر حول نظام الامتحان لإجازة العلماء بالتدريس، وكأنهم كانوا لا يريدون وضع أي نظام لتخريج العلماء! مكتفين من العلماء بالحضور على نحو ما يحدث في المدارس العسكرية، ولم يكن هذا في مصلحة الأزهر ولا العلم، لكن طغيان السياسة كان كفيلا بأن يساعد هؤلاء على أن يقلبوا محاسن الرجل إلى عيوب.

وقد ألفت الحكومة لجنة للتحقيق برئاسة أحمد رشيد، وعضوية ثلاثة من الباشوات كان عبد الله فكري أحدهم، فلم تر اللجنة في شكاوى العلماء ضد شيخهم إلا الافتعال والاصطناع، لكنها رأت حسما للنزاع، وصدا لتيار الدسائس ضد شيخ الأزهر أن تبقيه في منصب الإفتاء، وأن تسند مشيخة الأزهر إلى عالم آخر، وبالطبع لم تصرح اللجنة بعزله من المشيخة، لكن إسناد المشيخة إلى غيره يعني أنها قد صرفت عنه، أو صرف هو عنها.

وفي نظر محمد عبد الغني حسن أن قرار اللجنة التي ضمت عبد الله فكري كان قرارًا تمليه الكياسة، وتوجبه الحكمة، «فلم يكن من المعقول أن تقف اللجنة أمام تيار لم تكن قادرة على الثبات فيه، فقد كان عرابي يومذاك وكيلا لوزارة الحربية، وكان له رأي في تشكيل الوزارة الشريفية الثالثة، وكان ثملا بخمر الانتصار، فلم يكن من الفطنة الوقوف أمام رغباته».

وهكذا قدر لعبد الله فكري أن يثبت، في مرحلة مبكرة، قدرته على الوصول إلى حل

وسط يكفل للثوار مظهر الانتصار دون أن يتجنى كثيرًا على الحقيقة، وعلى المصلحة الحقيقية.

(١٣)

ومن المهم أن نتناول الدور الذي لعبه عبد الله فكري كوزير للمعارف على الرغم من قصر فترته في هذا المنصب.

يذكرنا الأستاذ عبد المنعم شميس في كتابه «عظماء من مصر» بأن محمد عبده فيلسوف الثورة كان يدعو إلى تحقيق التعليم قبل تحقيق الديمقراطية، وهو الذي كان يقول: «إن الشعب الجاهل لا يستطيع انتخاب مجلس النواب الذي يمثله تمثيلا صحيحا»، وذلك على النقيض من فكرة أحمد عرابي الذي كان يقول: «إن إسقاط الطغيان والاستبداد لا يتم إلا عن طريق مجلس النواب الذي يمثل الشعب». وقد كان عبد الله فكري (على نحو ما حققه الأستاذ عبد المنعم شميس بالتفصيل في كتابه «عظماء من مصر») بمثابة البطل في أول مناقشة برلمانية تناولت سياسة التربية والتعليم في مصر، وكانت رؤيته التربوية والتنموية التي أبانت عنها هذه المناقشة في منتهي الوضوح.

وتبدأ القصة البرلمانية المشرفة لتاريخ الحياة السياسية المصرية عندما تقدم عبد السلام المويلحي نائب القاهرة إلى حكومة البارودي باشا (١٨٨٢) بمذكرة عن إجراءاتها من أجل توسيع دائرة المعارف العمومية في مصر، وركز المويلحي على ثلاثة أسئلة:

١ - بيان المدارس الأميرية الموجودة في مصر في ذلك الوقت.

٢ - بيان عن المدارس التي يمكن لوزارة المعارف إنشاؤها في هذا العام (١٨٨١/ ١٨٨٢) من المندرج في ميزانيتها.

٣ - بيان ما يمكن تخرجه من مدرسة المعلمين خلال العام، وحتى اجتماع مجلس النواب في السنة القادمة.

وقد كانت هذه المناقشة «فرصة التاريخ»، إن صح هذا التعبير، التي أتيحت لعبد الله فكري وزير المعارف ليبين عن رؤيته التربوية، ومما يحسب له أنه لم يقدم لمجلس النواب

إجابة تقليدية عن الأسئلة المطروحة، وإنما أضاف إلى إجابته رؤية ذكية كفيلة برسم سياسة مستقبلية للتعليم في مصر، ولم يخرج عبد الله فكري من قاعة مجلس النواب إلا بعد أن أخذ موافقة البرلمان الإجماعية على سياسته، لكن الحوادث السياسية كانت كفيلة تمامًا بتجميد هذه السياسة بعد ما انتصرت الإمبراطورية البريطانية المعتدية على مصر بعد ثلاثة شهور(!!)

(١٤)

ومن المهم أن نتأمل هنا جوهر الفكرة التي طرحها عبد الله فكري على البرلمان حين كان ناظرًا للمعارف في وزارة الثورة العربية (١٨٨٢) .

قال عبد الله فكري موجهًا حديثه للبرلمان:

«إن الحكومة لا تستطيع بناء المدارس المطلوبة لتعليم أبناء الشعب وبناته، وإنّه «إذا أنشأت الحكومة في السنة أربع مدارس بل خمسا بل عشرا بل في كل شهر مدرسة، لزمكم على تلك الحالة أن تنتظروا لحصول هذا الغرض نحو خمسمائة سنة».

وبعد أن أجاد عبد الله فكري تصوير حجم القضية وعجز الموازنات الحكومية عن الوفاء بالخطط المرجوة، انتقل إلى طرح خطته القائمة على توزيع النفقات بين الأهالي والحكومة واستغلال الإمكانات المتاحة من أجل النهوض بالعملية التعليمية، وبدأ بأن طالب النواب والأعيان والأغنياء بإنشاء المدارس في بلادهم وقراهم، وبرر هذا بقوله: إن «إيجاد المدارس على نفقة الأهالي لا يكلفهم غير جزء صغير من المصاريف، فالطوب يضرب في البلد، ويحرق في البلد، ويبنى بمعرفة بنائين وفعلة منها، ولا يخفى ما في ذلك من قلة النفقات».

(١٥)

وفي الجلسة ذاتها قدم عبد الله فكري لأعضاء مجلس النواب نموذجًا لرسم هندسي لمدرسة من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، وقال للنواب: «أعرضه عليكم مثالا، وفي الجيزة مدرسة من الدرجة الأولى، وفي قليوب مدرسة من الثالثة جعلت في تلك الجهات الواقعة على خط السكة الحديد ليسهل معاينتها ، وتكون كل منها نموذجا لنوعه».

وهكذا سهّل الوزير على النواب تخيل الصورة التي ستكون عليها المدارس التي أعدت رسومها، وطالب النواب بمشاهدة هذه النماذج وقال: «إنه يمكن بناء مدارس بتكاليف أقل، ولو بالطوب الأخضر، لأن القصد المنفعة وليس الوجاهة».

ثم انتقل عبد الله فكري ليضع حلولًا لكل المشكلات التمويلية الأخرى بما في ذلك تعيين المدرسين ورواتبهم، وقد اقترح في خطته أن يكون المدرس من أهل القرية مثل خطيب المسجد أو غيره من الأزهريين، على أن تتحمل الحكومة راتبه، وجعل الراتب بين ٢٠٠ قرش و٣٠٠ قرش (وكان هذا الراتب مجزيًا بمعدلات ذلك الزمان). وحدد المواد التي تدرس في هذه المدارس وهي: القرآن والإملاء، والمطالعة، والحساب، وبعض العلوم الطبية (كذا في النص المتاح عن تلك المناقشات، ويبدو أن سطوة الأطباء لم تكن قد وصلت إلى إجبار الوزارة على أن يكون اسم هذا النوع من المعرفة العلوم الصحية فحسب).

(١٦)

وبفضل جهود عبد الله فكري قرر مجلس النواب المصري في جلسة ٢٠ من أبريل ١٨٨٢ سياسة الدولة في هذا الشأن على نحو واضح:

«إن الحالة التي وصلت إليها البلاد بهمة ذوي النجدة والغيرة من أبنائها (كان المقصود من هذه العبارة الحزب العسكري الذي بدأ السيطرة على مقدرات الأمور، وهو حزب أحمد عرابي) تستدعي الاجتهاد في تعميم التعليم وتسهيل طرقه، فقررت أن يقوم كل واحد من النواب بإنشاء مكتبة (مدرسة) من الدرجة الثالثة في بلده تعلم فيها القراءة والكتابة وطرف من الحساب والفقه والنحو بدون أن تتكلف الحكومة بشيء من النفقات سوى أن تتنازل عن الموضع الذي تبنى فيه من البراح (أي الأرض الفضاء) الباقي تحت ملكها. أما الذين يعهد إليهم في تلك المكاتب (المدارس) فيؤخذون بواسطة نظارة المعارف من الجامع الأزهر، وعلى النظارة ترشيحهم للقيام بهذه الوظائف كما سبق ذلك في خطبة ناظر المعارف أمام هيئة المجلس، وكما قرت عليه اللجنة أيضا».

وقد طالب علي بك القريعي نائب المنصورة بطبع رسومات وتقديم نسخة لكل عضو لتنفيذها.

ويذهب الأستاذ عبد المنعم شميس من هذه الرواية إلى أن عبد الله فكري كان بهذا أول مَنْ أعلن حق التعليم في مصر منذ مائة عام.

ويذكر أن عبد السلام المويلحي (مقدم السؤال) علّق على كلمة عبد الله فكري وزير المعارف في البرلمان قائلا:

«نشكر لسعادة ناظر المعارف العمومية اهتمامه بالأسئلة الواردة في تقرير هذا العاجز (يتحدث عن نفسه بتواضع)، فإنه قد استوفي الإيضاح، واستكمل البيان بما نعلم في سعادته من الفضل وقوة العالمية (أي: المعرفة والإحاطة)، وإني على رأي سعادته من أن التوكل (أي: الاعتماد) المطلق على الحكومة في نشر المعارف في البلاد لا يأتي بالفائدة المقصودة، بل لابد في هذا الأمر من تآزر الهمم، واجتماع الإرادات، واتحاد المساعي من كل حريص على نجاح وطانه، راغب في تقدم أبنائه وإخوانه».

(١٧)

وقبيل نهايات الثورة العرابية، رأى مجلس الوزراء دعوة مجلس النواب للنظر في الخلاف القائم بين الحزب العسكري بقيادة عرابي والخديو توفيق .

ولم يكن كل الوزراء مؤيدين فقد عارض هذا الرأي كل من : عبد الله فكري وزير المعارف، وعلى صادق وزير المالية، ومصطفي فهمي وزير الخارجية، وهم الوزراء الذين لم يكن لهم ميل حزبي واضح، ولم يكونوا من أنصار العرابيين، ولهذا لم تكن موافقة مجلس الوزراء بالإجماع، بل كانت بالأغلبية. وإلى هذا الموقف الذي اتخذه عبد الله فكري وزميلاه فيما يتعلق بالدعوة إلى نهاية انعقاد مجلس النواب، استند عبد الله فكري محاولا تبرئته في أثناء محاكمة العرابيين، بعد إخفاق الثورة، ودخول جيش الاحتلال البريطاني مصر».

وعلى كل الأحوال فقد أقيل عبد الله فكري من منصبه كوزير للمعارف مع سائر زملائه الوزراء عند نهاية الثورة ودخول الاحتلال.

وهكذا اقتصر عهده في تولي وزارة المعارف على وزارة البارودي التي هي وزارة الثورة العرابية .

(١٨)

أخذت الحكومة في محاكمة زعماء الثورة العرابية وكان عبد الله فكري بالطبع ممن قبض عليهم، وبعد استجوابه أمام لجنة التحقيق أطلق سراحه بعد تبرئته، وتذكر بعض المصادر أن معاشه أعيد إليه مباشرة لكن أكثرها تذكر أن السلطات قطعت عنه معاشه(!!) وهو الأقرب إلى المنطق لما نعرفه نحن عن اضطراره إلى نظمه قصيدة اعتذار للخديو، وقد قيل إنّه التمس المثول بين يدي الخديو توفيق، فلم يؤذن له، وأنه لهذا نظم قصيدة اعتذار ومديح للخديو، وقد حرص فيها على أن يبين براءة ساحته، وقد نحا في قصيدته منحى قصيدة النابغة الذبياني في اعتذاره، ومن الطريف (كما سنرى) أن الأستاذ العقاد يعتبر هذه القصيدة من أفضل شعره.

وقد جعل عبد الله فكري عنوان قصيدته: «عريضة استعطاف واسترحام لولي الأمر والإنعام»، وقال في استهلال استرحامه واستعطافه:

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى ... وكبر إن وافيت و اجتنب الكبرا

وقف خاضعا واستوهب الإذن والتمس ... قبولا، وقبل سدة الباب لي عشرا

وبلغ لدى الباب الخديوي حاجة ... لذي أمل يرجو له البشر والبشرى

لدى سمح مؤمل ... صفوح عن الزلات يلتمس العذرا

تنوء الجبال الراسيات لحلمه ... إذا طاش ذو جهل لدى غيظه قهرا

يراقب رحمن السموات قلبه ... فيرحم مَنْ في الأرض رفقا بهم طرا

مليكي ومولاي العزيز وسيدي ... ومَنْ أرتجي آلاء معروفه العمرا

لئن كان أقوام علىّ تقولوا ... بأمر فقد جاؤوا بها زوروا نكرا

حلفت بما بين الحطيم وزمزم ... وبالباب والميزاب والكعبة الغرا

لما كان لي في الشر باع ولا يد ... ولا كنت مَنْ يبغي مدى عمره الشرا

ولكن محتوم المقادير قد جرى ... بما الله في أم الكتاب له أجرى

وهو يحاول أن يعلل انسياقه إلى تأييد العرابيين بميله (المشهور عنه) إلى الخير :

أتــذكر يــا مــولاي حــين تقــول لي ... وإني لأرجــو أن ســتنفعني الــذكرى

أراك تــروم النفــع للــناس فطــرة ... لــديك ولا ترجــو لــذى نــسمة ضرا

فعفــوا أبــا العبــاس لازلــت قــادرًا ... عـلى الأمـر إن العفـو مـن قـادر أحـرى

وحـسبي مـا قـد مـر مـن ضـنك أشـهر ... تجــرعت فيهــا الـصبر أطعمـه مــرا

يعــادل منهــا الــشهر في الطــول حقبــة ... ويعــدل منهــا اليــوم في طولــه شهــرا

أيجمــــل في ديــــن المــــروءة أننــــي ... أكابــد في أيامــك البــؤس والعــسرا

وسوف نسمي هـذه القـصيدة الاسـتعطافية في كتابنـا هـذا بقافيتهـا الرائيـة ، ذلـك أنهـا واحدة من قصيدتين ، وهي الأولى ، أمـا الثانيـة فقـصيدة ميميـة نظمهـا عبـد الله فكـري لما استجاب له الخديو توفيق وعفا عنه، وأعاد إليه معاشه، وفيها قال:

ألا إن شكـــر الــصنع حــق لمــنعم ... فــشكرا لآلاء الخديــوي المعــظم

مليــك لــه في الجــود فخــر ومفخــر ... عـلى كـل منهـل مـن الـسحب مـرهم

سأشـكره الـنعماء مـا عانقـت يـدي ... يراعـي أو اسـتولى عـلى منطقـي فمـي

(١٩)

وواقع الأمر أن فشل الثورة العرابية كان بمثابـة نهايـة لحيـاة عبـد الله فكـري الـسياسية والوظيفة مع أنه لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره !!

وقد تركزت مناشط حياته بعد الثورة في ميدان العلـم بعيـدا عـن الـسياسة، فتوجـه إلى الحجاز لأداء فريضة الحـج، وفي أثنـاء هـذه الرحلـة لقـي مـن علـماء مكـة والمدينـة مـا يليـق بمقامه من الإكرام والإعظام، وكتب في ذلك كتابا سماه «الرحلة المكية».

وانصرف عبد الله فكـري بعـد عودتـه إلى مـا كـان قـد شرع فيـه مـن العلـم والـرحلات ورعاية الأرض واستـصلاحها، وحفـظ لنـا التـاريخ مـا سـجله عـن رحلاتـه، وربـما تبـدو رحلاته بمنطق أيامنا قليلة أو محدودة النطاق، لكنها بالنسبة إلى عصره تؤهله لأن يوصـف

بأنه كان من أصحاب الرحلات.

(٢٠)

وقد فصّل جورجي زيدان القول في رحلاته في تلك الفترة فذكر أنه في السنة التالية زار بيت المقدس والخليل ، وكان بصحبته نجله المرحوم أمين باشا فكري فلقي من العلماء، والعظماء هناك ما يجدر بفضله، ثم «سارا إلى مدينة بيروت الزهراء لتبديل الهواء وأقاما فيها شهرا كان مقامهما فيها منتدى الفضلاء، ومشرع الأدباء والعلماء، ثم ارتحل إلى دمشق فلاقى فيها ما لاقاه في بيروت من الاحتفاء وحسن الوفادة، ثم عرج إلى بعلبك فزار آثارها ، وسار منها بطريق لبنان إلى بيروت فأقام فيها شهرين وعاد إلى مصر».

(٢١)

ولما كان العصر الذي عاش فيه عبد الله فكري عصر معرفة بأقدار الناس وكفاءاتهم، فقد وقع عليه اختيار الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمي المصري إلى مؤتمر المستشرقين الثامن ، الذي انعقد في مدينة إستكهولم ، وقد صحبه في هذه الرحلة أيضا نجله أمين باشا فكري عضوا في هذا الوفد، وهو الذي تولى الترجمة والاتصال بين الوفد والوفود الأخرى، ويذكر محمد عبد الغني حسن أن الوفد ضم بالإضافة إليهما كلا من الشيخ حمزة فتح الله، والأستاذ محمود عمر، وكانت هذه أول وآخر زيارة لعبد الله فكري لأوروبا، وقد نظمت رحلته بحيث مكنته من خلال ذهابه وعودته من زيارة عدد من عواصم أوروبا في النمسا، وإيطاليا، وفرنسا ، وسويسرا، والدنمارك، والسويد، والنرويج، وألمانيا.

وقبل سفر الوفد من الإسكندرية منح الخديو عبد الله فكري النيشان المجيدي من الدرجة الثانية .

(٢٢)

ويكاد وصف خط سير رحلته يكون واحدًا في كل المصادر التي لخصت هذه الرحلة:

« وقد مر الوفد في وفادته المذكورة على تريستا من أعمال النمسا (كانت كذلك في ذلك الوقت) وفينسيا (البندقية) وميلانو من أعمال إيطاليا، ولوزان (لوسرن) من أعمال سويسرا، وباريس التي أقام بها أكثر من عشرين يوما (وفي رواية أن إقامتهم امتدت ثمانية

عشر يوما كاملة فقط) قضاها في السياحة بالمدينة وضواحيها، وكان وقت المعرض فشاهد ما فيه من عجائب الصنائع، وغرائب الفنون، ثم انتقل إلى لندن ومنها إلى روتردام ولاهاي في هولندا، وليدن، وزار مكتبتها الشهيرة ورأى مطبعتها المعروفة بالمطبوعات الشرقية، ثم توجه منها إلى كوبنهاجن عاصمة الدنمارك، ومنها إلى إستكهولم حيث انعقد المؤتمر».

وفي طريق العودة من مأموريته مرّ على برلين عاصمة ألمانيا وفيينا عاصمة النمسا،فلقي بها ما لقيه في العواصم الأخرى من الاحتفاء.

وقد كان من حظ هذه الرحلة الجميلة أن تحظى بالتسجيل، وقد بدأ عبد الله فكري نفسه في تسجيلها لكنه انشغل عن تسجيلها وإتمام كتابتها إلى أن توفي، وعند ذاك عني نجله بنشرها في كتاب مشهور طبع في مجلد ضخم بمصر سنة ١٨٩٢ وهو كتاب «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» ، وقد أعددت هذا الكتاب للنشر ضمن مشروع رائد تقوم به مكتبة الإسكندرية بإشراف الصديق الدكتور صلاح الجوهري.

ولا ريب في أن مباهج أوروبا وحضارتها قد دفعت عبد الله فكري وابنه أمين باشا إلى أن يسجلا محاسنها منذ اللقاء الأول مع هذه الجماليات، وقد أشار الرجلان (الأب والابن) في رسائل إلى الأصدقاء إلى ما شاهداه من جمال الطبيعة في جبال إيطاليا وسويسرا وبحيراتها والأنفاق العجيبة ، مثل نفق سان جوتار، كما أخذ عبد الله فكري يملي على ابنه أمين باشا ما يعن له من هذه المشاهدات.

ويذكر لنا التاريخ أن عبد الله فكري ما كاد يصل إلى مدينة لوزان حتى أرسل إلى صديقه العالم الرائد على مبارك باشا رسالة طويلة يصف فيها البحر والسفينة، والبحيرات السويسرية الجميلة، ولم يفته أن يصف الأوانس (الصباح الملاح، من كل خود رداح، شاكية السلاح، من ألحاظ كالصفاح، مراض صحاح، وقدود كالرماح، دامية الجراح، فاتكة بالأرواح!!».

والحق أن إسهامات عبد الله فكري في أدب الرحلات كانت إسهامات بارزة ومبكرة ،

وقد خصصنا لدراستها فصلا آخر في موضع آخر عنينا فيه تتبع آثاره في الرحلة المكية ، والرحلة البعلبكية ، ثم الرحلة الأوربية .

(٢٣)

ونحن نلاحظ أيضا فيما كتبه أمين فكري عن رحلة والده عبد الله فكري وأقرانه أنه هو وزملاؤه كانوا حريصين على زيارة باريس زيارة فاحصة، ونستطيع أن ندرك هذا من الوهلة الأولى عندما نطالع عدد الصفحات التي استغرقها الحديث عن باريس وتفصيل مشاهداتهم فيها يوما بيوم، وعلى حد ما وصف عبد الله فكري وابنه رحلتهم فإنهم:

«لم يتركوا أثرا إلا شاهدوه، ولا معرضا ولا متحفا إلا زاروه، ولا قصرا تاريخيا إلا طافوا بأرجائه، ولا مصنعا من أكبر المصانع إلا جالوا في أنحائه، فزاروا قصر فرساي، وغابة بولونيا، ومتحف اللوفر، ودار الأوبرا، وحديقة لكسمبور، ومعامل سيفر الشهيرة بصناعة الخزف الصيني الممتاز، والمكتبة الأهلية... إلخ».

ومن الطريف أن عيد الأضحى حل في يوم ٧ من أغسطس سنة ١٨٨٩م خلال مقامهم بالعاصمة الفرنسية، ولم يكن في باريس مسجد في ذلك الحين، وقد اتخذوا من الفندق النازلين فيه مسجدا، واتخذوا من سرير الشيخ حمزة فتح الله منبرا(!!) وأحيوا العيد بالتكبير والتهليل.

(٢٤)

ومن الطريف أن زيارة عبد الله فكري جاءت عقب إتمام بناء برج إيفل بفترة قصيرة.

وقد كان أعضاء وفد مصر في مؤتمر الاستشراق من أوائل الرجال الذين صعدوا إلى أعلى طبقات برج إيفل.

وقد نقلت عن هذه الرحلة كثيرًا من التفصيلات في ثلاثية كتبي عن باريس : «باريس الرائعة» ، «وباريس الفاتنة» ، «وباريس الحيوية» .

(٢٥)

وفي إستكهولم قدم عبد الله فكري لمؤتمر المستشرقين بحثين: أولهما في شرح قصيدة

لحسان بن ثابت شاعر الرسالة والرسول، وثانيهما في موضوع التعليم الجاري بمصر في المدارس الأمريكية والمكاتب الأهلية والمدارس الدينية.

ولم يلق عبد الله فكري الرسالتين في مكان واحد، وهو مكان انعقاد المؤتمر بمدينة إستكهولم، بل ألقى أولاهما في ذلك المكان، وألقى الأخرى في مدينة كريستيانا التي كانت عاصمة جنوبي النرويج.

أما البحث الأول فقد سماه «عجالة البيان على ديوان حسان»، وهو محاولة تحقيق ديوان حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ، وقد نحا فيها منحى علميًا متقدمًا حيث جمع كل ما تيسر له من نسخ مخطوطة لهذا الديوان، وقارن بينها، وحقق أصولها، ثم كتب ترجمة لحياة حسان بن ثابت، وقدم شرحا لإحدى قصائده، وقد نال هذا البحث الفريد اهتمام المستشرقين، كما نال تقريظ الصحافة.

كذلك ألقي عبد الله فكري في المؤتمر قصيدته الرائية الجميلة (وهي غير رائيته في استعطاف الخديو توفيق) وكان مطلعها:

اليوم أسفر للعلوم نهار ... وبدت لشمس سمائها أنوار

ومن الطريف أن الرائية فرضت سيطرتها على هذه القصيدة الجميلة بسبب اسم الملك أوسكار الذي كرم عبد الله فكري .

وقد سار فيها على طريقته وطريقة شعراء عصره في العناية بالزخارف، والمحسنات، وما إلى ذلك مما يصف الشعر بأنه تقليدي في عصر تقليد .

(٢٦)

كان من حظ عبد الله فكري في أثناء حضوره مؤتمر المستشرقين بالسويد أن يلتقى بعدد من المستشرقين كان منهم: يوسف كوتوال (جوتولد)، والمستشرق المجري جولدتسيهر، والبارون الألماني دي كريمر، الفرنسي شيفر، والمستشرق الهولندي دي جويه، والمستشرق الألماني الأصل ماكس مولر، والمستشرق الألماني أوجست مولر، والمستشرق الألماني بروكش باشا.

وفي نهاية المؤتمر أنعم الملك أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج عليه بنيشان «وازه» من الدرجة الأولى، وكان هذا التقدير من الملك لعالم مصري من أعظم درجات التشريف

في ذلك العصر.

(٢٧)

وفي السويد كان على عبد الله فكري (باعتباره رئيسًا للوفد المصري) أن يقابل رئيس الوزارة السويدية، وكان في الوقت نفسه وزيرا للخارجية، وكان همزة الوصل بين الرجلين هو الكونت دي لاندبرج قنصل السويد والنرويج في القاهرة، وقد رد رئيس الوزراء لرئيس وفد مصر الزيارة في الفندق الذي كان معدا لضيافته مع بقية أعضاء الوفد.

ويروى الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن عبد الله فكري قابل الملك أوسكار الثاني ملك السويد والنرويج مرات عدة، أما المقابلة الأولى فكانت غير رسمية، وكانت في القصر الذي أعد لانعقاد المؤتمر، ويبدو أنها كانت بمحض الصدفة فقط.

أما المقابلة الرسمية فكانت في اليوم التالي.. أي في ٣١ من أغسطس سنة ١٨٨٩م.

وقد كان الكونت دي لاندبرج نفسه من المهتمين بالمشرقيات، وهو في نظر البعض «مستشرق من طراز بديع»، وقد جمع بين وظائف السلك السياسي، والاشتغال بالعلوم الشرقية، خاصة اللغة العربية التي كان يجيدها كتابة وحديثا، وكان له ذوق نادر في جمع النادر من المخطوطات العربية التي كانت متفرقة في أنحاء شتي من العالم، وكان لا يضن بشيء ـ في سبيل جمعها والحصول عليها ـ ولولا نسخته الخطية ما خرجت «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي في طبعتها الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٨٩٠، وكان هذا الرجل الدبلوماسي المثقف صاحب طريقة محببة في الإقناع والإغراء، وينسب البعض إلى لباقته وكياسته ودبلوماسيته الفضل في إقناع عبد الله فكري بقبول رئاسة وفد مصر في المؤتمر، وعلى الاشتراك فيه وقبول الدعوة إليه، بعد أن كان ممتنعا ومنصرفا. ومن الجدير بالذكر أنه هو الذي سعى لدى الملك أوسكار الثاني ملك السويد (١٨٨٩) ـ أي في عام المؤتمر نفسه ـ ليهدي إلى العلامة اللغوي الشيخ إبراهيم اليازجي وساما رفيعا في العلوم والفنون

تقديرًا لجهوده في خدمة لغة العرب.

(٢٨)

ونأتي إلى بعض ملامح شخصية عبد الله فكري، ونحن نرى في كتابات السابقين وكتاباته ما يدل على أنه امتاز - فوق مكانته الأدبية - بروح متدينة شديدة التدين، في غير تزمت، وبإيمان كبير بالله الذي بيده النفع والضر، والخير والشر، وبنزعة محبة للخير إلى أقصى حدود الحب، وبأخلاق رفيعة حببت فيه أهل عصره، وأدباء زمانه.

ويشير الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه عنه إلى أنه سلك طريق التصوف على طريق السادة الخلوتية، وهو يذكر أن عبد الله فكري أخذ الطريقة وتلقى أحزابها وأورادها وآدابها وأسرارها على شيخ من شيوخها اسمه الشيخ على حكشة، كان من العارفين بالله الواصلين، وله كرامات مشهورة في وقته، رفعته إلى مقام الأولياء، وانتهت إليه مشيخة الطريقة.

ويشير علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» إلى أن عبد الله فكري عرف الشيخ على حكشة، وعاشره وشاهد كثيرا من كراماته.

وقد أشار عبدالله فكري إلى الفطرة الخيرة فيه في قصيدته الرائية بقوله:

أتذكر يا مولاي حين تقول لي ... وإني لأرجو أن ستنفعني الذكرى
أراك تروم النفع للناس فطرة ... لديك، ولا تبغي لذى نسمة ضرا؟

(٢٩)

يقال : إن ثروة عبد الله فكري لم تكن شاغلا له في حياته الأولى التي كان مشغولًا فيها بالوظيفة، لكنه في أخريات حياته حين خلا من مشاغلها شغل نفسه باقتناء الأرض واستصلاحها وتعميرها، ويروى محمد عبد الغني حسن أن عبد الله فكري ذهب في طلب الأرض إلى أبعد من الشراء خطوة، فقد قدم إلى الخديو توفيق «طلبا شعريا» يلتمس منه فيه أن يمنحه أرضا زراعية، حتى لا يظل محرومًا من تملك الأرض:

يا من دعائي له ومدحي ... نفل مدى مدتي وفرضي

ويـــا ســـماء العـــلا ! أتـــرضى ... أني أبقـــــــي بغـــــــير أرض ؟

ولي لأبوابـــــــك انتـــــساب ... فـــامنن بـــشيء عـــلى مـــرضي!

لأمـــــلأ الأرض مـــــن ثنـــــاء ... يـــسري بطـــول لهـــا وعـــرض

وقد أجاب الخديو توفيق طلبه، فأقطعه مائتي فدان.

(٣٠)

وقد وصف ابنه أمين فكري باشا فترة مرض والده الأخيرة وصفا دقيقا في مقدمة كتابه «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا» فقال:

«حضر لمصر بعد هذه المرة واستشار طبيبه فنصحه بعدم إتعاب الفكر، وترك الإكثار من المطالعة، فامتثل أمره ووقف سير الاشتغال بالرحلة وبغيرها لهذا السبب».

«وأخذت صحته تتحسن وتتقوى مستمرا في تقليل المطالعة آخذا في أسباب العود إلى تمام العافية إلى أن طرأ طارئ لبعض أخصائه استوجب زيادة اشتغال فكره، واستلزم شدة تأثره ، فعاوده المرض بشدة أكثر من الأول، ولكن الله سلم في هذه النوبة أيضا باستعمال الوسائط المقوية، والاستمرار على العلاجات اللازمة، وكان ذلك في شهر رجب (١٣٠٧ هـ = ١٨٩٠ م)، فبقي مستريح الجسم من ذلك الشهر إلى أواسط شهر ذي القعدة، وقد أشار عليه الأطباء بتبديل الهواء لتتم راحته وتكمل صحته، فتوجه إلى تل حوين وأخذ يتسلى فيها بملاحظة أشغالها الزراعية، وكانت تتوارد مكاتباته إلى كل تلك المدة منبئة عن حسن صحته، مشعرة بمزيد سلامته حتى قرب العيد الأكبر ، وأراد الحضور لمصر وكتب لي بذلك طالبا مني أن أنتظره بمحطتها، مؤكدا على بذلك كل التأكيد في آخر مكاتبة منه إلى بتاريخ ٣ من ذي الحجة (١٣٠٧ هـ) كأن الله أطلعه على أن ذلك ضروري كما ستراه».

«فلما كان يوم الخميس ٧ من ذي الحجة (١٣٠٧ هـ = ٢٤من يوليو ١٨٩٠م) ذهبت لأنتظره بالمحطة في ميعاد الوابور المعتاد (الساعة ٥ و٢٠ دقيقة بعد الظهر) وإذا به لم يعرفني، بل كان يسأل عني إلا أنه بعد كثرة الإلحاح عليه في تعريفي نفسي عرفني آخر مرة قال فيها: «الحمد لله الذي جمع شملنا».

«فلما وصلنا البيت أخذنا في المعالجة وفي الوسائط التي بها يكون صرف المرض، واستعملنا كل ما وصلت إليه اليد، واستحضرنا مَنْ لزم من الأطباء، إلا أن المرض كان أقوى والأجل كان أدنى فاحتضر وناداه مولاه فلباه وفارق دنياه بعد ساعة عربية ونصف من يوم الأحد (يوم الأضحية) من ١٠ ذي الحجة (١٣٠٧ هـ = ٢٧ من يوليو ١٨٩٠م)».

(٣١)

يمكن القول بأن عبد الله فكري كان محظوظًا في تخليد إنتاجه، حيث جُمع كثير من إنتاجه الشعري والنثري في مجلد واحد أشرف عليه ولده أمين باشا فكري، لكن الدراسة المتأنية لتاريخه وإنتاجه تدلنا على أن كثيرًا من هذا الإنتاج لا يزال مفقودًا، وسنناقش المؤلفات المنسوبة إليه بالتفصيل في فقرة تالية.

لكننا نستطيع أن نبدأ بأن نكرر ما قرره مؤرخو الأدب العربي من أن عبد الله فكري كان رائد تجديد النثر العربى، على نحو ما كان محمود سامي البارودي رائد تجديد الشعر، ومن الطريف أن الأول كان وزير المعارف في وزارة الثاني،وهي وزارة الثورة العرابية، وهكذا كان الرجلان متعاصرين في الثورة وفي التجديد.

والواقع أن إنجاز عبد الله فكري يكمن في أن مواهبه مكنته من كتابة لون جديد من النثر لا تثقله المحسنات البديعية والسجع الذي كان سائدا على أقلام كتاب عصره، وذلك على الرغم من تفوقه في كتابة هذا الأدب التقليدي، ولم يقف عند تطويره للكتابة النثرية في الفصحى، بل إنه كتب رسائل بارعة باللهجة العامية المصرية تعتبر في قمة الفن النثري، وقد مكنته سعة الأفق والعلم بالاجتماع والتاريخ من أن يتولي تنقيح القوانين واللوائح الحكومية وتعديلها، ويمكن القول أن إنجازه في هذا الصدد كان نموذجًا للنجاح في صياغة التشريعات، وهو نجاح مهم من حيث القدرة البيانية، وإن لم يلق بعدما يستحقه من تقدير الأدب والنقد.

(٣٢)

والواقع أن فضل عبد الله فكري على الكتابة الديوانية لا يقل عن فضله على الكتابة الإخوانية، وقد أجمع معاصروه ولاحقوه على إثبات فضله في تجديد الرسائل الديوانية

ولغة الدواوين، وهو تجديد كان ملائما لظروف ذلك العصر، ويمكن وصفه بأنه كان أقرب ما يكون إلى طريقة إعادة الرواء للكتابة على مذاهب بديع الزمان الهمذاني وأصحاب المحسنات اللفظية، ولاشك أنه في هذه الخطوة كان ممهدًا لحركة التجديد التي سار فيها الشيخ محمد عبده، وتخلص فيها من السجع ، حتى انتهت إلى الأخذ بما يسميه البلاغيون «أسلوب الترسل».

ونحن نرى الشيخ حسين المرصفي في الجزء الثاني من كتابه «الوسيلة الأدبية» (١٨٧٢) حريصا على أن يذكر فضل عبد الله فكري في هذه الناحية، منبها إلى مذهبه في الإنشاء، مشيرا إلى «أنه المذهب الذي يتخذه كل مَنْ يريد النجاح في الكتابة الإنشائية الملائمة لروح العصر»، ومع اعتراف الشيخ حسين المرصفي بغلبة الصنعة على طريقة عبد الله فكري في الإنشاء ؛ فإنه يقرن هذا بالقول بأنها «الطريقة المناسبة لأحوال بني وقته، الموافقة لأفهامهم».

(٣٣)

أما في كتابة الرسائل الإخوانية فقد تألق عبد الله فكري، وحاول أن يعود بها إلى عهد بديع الزمان بما فيه من سهولة العبارة، والبعد عن التعمل والتصنع، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمين الأمثال السائرة، والإشارة إلى الحوادث المشهورة، وإيثار بعض الحلى اللفظية، كالجناس والمطابقة ، بعيدًا عن التزيد منها والاتكاء عليها على نحو ما كان في العصر الأيوبي وعصر المماليك .

وقد كانت طبيعة الأمور تقتضي أن يعود عبد الله فكري بالرسائل الخاصة الإخوانية إلى عهد بديع الزمان الهمذاني وابن العميد، بدلا من العودة بها إلى عهد الكتاب المترسلين من أمثال ابن المقفع، وعبد الحميد الكاتب وأضرابهما من كتاب الرسائل في صدر الإسلام.

ومما يلفت النظر في رسائل عبد الله فكري الإخوانية أن أكثرها كان يكتبه على لسانه هو، لأنها من وحي علاقاته الخاصة مع رجال عصره، ولهذا كانت هذه الرسائل تعبر أصدق التعبير عن مشاعره وإحساسه، ومع هذا فقد حفظ لنا تاريخ الأدب «حفنة من الرسائل الخاصة كان يكتبها على لسان غيره من أصحابه»، وقد كان يتأنق في هذه الرسائل

تأنقه في رسائله هو، ويوشيها بالبديع السائد منذ العهد الأيوبي وما قبله.

(٣٤)

يرى الأستاذ العقاد أن قصائد عبد الله فكري في شعر الحكم كانت «ألصق بوصايا المتأخرين ونصائحهم منها بالحكم المطبوعة التي كانت تتخلل قصائد الشعراء عفوا في أدب الجاهلية والخضرمة وفحول القرن الثالث والقرن الرابع» .

ويمضي الأستاذ العقاد في توكيد هذا المعنى فيقول : «إنها كانت أشبه بكلام المعلمين منها بكلام الشعراء، وكانت بوصايا الآباء المحنكين أشبه منها بالخبرة المطبوعة التي تعبر عنها قرائح أهل الفنون».

وهو يرى أن قصيدته التي ضمنها النصح لابنه وأشباهها نصائح معلم ، وليست وحي شاعر.

ويرجح الأستاذ العقاد أن تكون قصيدة الاعتذار إلى الخديو توفيق خير ما نظمه عبد الله فكري في اللفظ والمعنى، لكنه سرعان ما يستدرك فيقول: «لكنها على ذلك من الأغراض التي تخطر لكل معتذر ينظم، «فلم يزد عليها من وحي الشاعرية ما يمتاز به طبع الفنان ولهجته في التعبير».

(٣٥)

وفي مقابل تحامل الأستاذ العقاد على معظم الآثار الشعرية لعبد الله فكري فإنه يرى أن له أبياتًا في المجون تنبئ عن نفحة الشاعرية، وهي الأبيات التي قالها في إحدى بنات الهوى في باريس:

وهيفاء من آل الفرنج حجابها	على طالب معروفها في الهوى سهل
تعلقتها لا في هواها مراقب	يخاف ولا فيها على عاشق بخل
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة	من الأصفر الإبريز زلت بها النعل
فلما تعارضنا الحديث تعرضت	لوصل، ومن أمثالها يطلب الوصل
فرحت بها في حيث لا عين عائن	ترانا ولا بعل هناك ولا أصل

وبت ولي سكران من خمر لحظها ... وراح ثناياها ومن خدها نقل

وقمت ولم أعلم بما تحت ذيلها ... وإن كان شيطاني له بيننا دخل

ويرى الأستاذ العقاد أن «لهذه القطعة دلالة نفسية، وعليها صبغة التعبير عن حالة المصري المسلم الذي أرسل سجيته بلا محاكمة ولا تكلف حتى نطق مزاجه ، ونطقت عاداته بما ينم على ضميره وخلجات إحساسه في أمثال هذه المواقف، ومن هنا نسمت عليها نفحة الشاعرية، ووضحت عليها الملامح النفسية».

لكن الأستاذ العقاد سرعان ما يستطرد فيقول:

«لكنها لم تخرج عن أغراض «الشقة المشتركة» بين طبائع الشعراء وغير الشعراء».

(٣٦)

ويلفت الأستاذ عباس العقاد نظرنا إلى بعض الموضوعات التي استغرقت موهبة عبد الله فكري الشعرية (إن صح تعبيرنا هذا.. وما أرى تعبيري إلا صدى لرأي العقاد)، ومن هذه الموضوعات أن عبد الله فكري كان يضع التواريخ بحروف الجمل في مطالع القصائد وخواتيمها فقال في فتح «سباستبول» وكل مصرع من مطلع القصيدة تاريخ للسنة:

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب ... لأن بفتح القرم هان لنا الصعب

وقال مؤرخا زواج الأمير (السلطان فيما بعد) حسين كامل:

أرخ لنحو حسين ... تزف عين الحياة

وكان يكثر من الجناس ومن ذلك قوله في قصيدته الرائية في مدح «إسكار» ملك السويد :

وتلا به إسكار رب سريره ... قولا به لذوي النهى إسكار

(٣٧)

وعلى نهج ما قال الأستاذ العقاد صاحب القدرة النافذة في الحكم على الأدب وتاريخه فإن بعض النقاد يذهبون في تأريخهم للأدب إلى أن عبد الله فكري لم يستطع القيام بتجديد ذي قيمة في الشعر مع أنه نظم ديوانا كاملا من الشعر، ونحن نلاحظ من كتابات النقاد

ومؤرخي الأدب أن شعر عبد الله فكري لم ينل ما ناله نثره من التقدير، لكنه مع ذلك لم يعدم هذا التقدير، ونحن نجد الشيخ أحمد الإسكندري يقول عن شعر عبد الله فكري: «وله شعر وسط في الجودة»، وكذلك نجد الأستاذ عمر الدسوقي يقول عنه: «كان يمثل في شعره مدرسة الصنعة، لا مدرسة الطبيعة، يؤرخ بكل مناسبة، ويشطر، ويقول الألغاز والأحاجي، ويقول ـ كما يقول الندماء ـ في وصف الآنية ومجالس الأنس والأزهار، وغير ذلك، ويكثر من المحسنات ينتزعها انتزاعا، ويحشرها حشرا، شأن هذه المدارس التقليدية، وقلما انطلق على سجيته، وترك نفسه لطبيعتها».

ويبدو لي أن الصيغة الغالبة على الكتابات النقدية التي تناولت قيمة شعر عبد الله فكري قد تأثرت إلى أبعد حد بما لخص الأستاذ العقاد به نظرته إلى شعر هذا الرجل في فصل ممتاز من كتابه «شعراء مصر وبيئاتهم».

(٣٨)

ونحن نرى الأستاذ العقاد يضع شعر عبد الله فكري في إطار تيار عصره، بل يضع عبد الله فكري نفسه في هذا التيار على نحو ما توحي به الفقرات التي نقلناها عنه من قبل.

كان عبد الله فكري يصف الآنية والأزهار ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدي بهم في عصر الأيوبيين وما بعده خلال المنادمات والمطارحات كما قال «في نار موقدة في فحم حوله رماد»:

كأنما الفحم ما بين الرماد وقد	أذكت به الريح وهنًا ساطع اللهب
أرض من المسك كافور جوانبها	يموج من فوقها بحر من الذهب

وقال في الورد:

كأن وردا لاح في كمه	يزهو بثوبي خضرة واحمرارا
ياقوتة في سندس أخضر	أو وجنة خط عليها عذار

(٣٩)

ويشير الأستاذ العقاد أيضًا إلى ما آثر عنه من أبيات متفرقة في أغراض التورية والاستخدام مما يذكر بأغراض النظم التي كان الأدباء الديوانيون يطرقونها ، ثم تمادى فيها مَنْ جاء بعدهم من المقتدين والمقلدين، ويضرب العقاد على هذا مثلًا بقصيدته التي يعارض بها لامية ابن مطروح ويقول في مطلعها:

غـــزال حـــلالى فيـــه الغـــزل فحرم قربي وفي القلب حل!

وقد امتد أثر الصنعة فشمل كل شعر عبد الله فكري حتى إن أبياته في الغزل لا تخلو من أثر الصنعة والتكلف والبعد عن كل عاطفة، «كما يبدو عليها البرود، لأنها ليست نتيجة تجربة صادقة»، ومن غزلياته قوله:

وعـــارف بفنـــون الطـــب تجربـــة وخـبرة لـيس يخفـي عنـه مـا التبـسا

وافى ليبلـو مـا أشـكو فجـس يـدي حينـا، وأرسـلها حينـا وقـد عبـسا

وقـال: داء هـوى أعيـا الأسـاة فـإن أهملتـــه زاد، أو داويتـــه انتكـــسا!

وإذا كان هذا (العارف بفنون الطب) يقول هذا الذي يقوله عن تجربة وخبرة ـ كما يقول الشاعر ـ فإنه هو نفسه لم يكن عارفا بالحب، أو قائلا فيه عن تجربة وخبرة!

(٤٠)

أما افتتاح القصيدة الاستعطافية الثانية ، أي القصيدة الميمية التي نظمها عبد الله فكري باشا للخديو توفيق فقد كان حافلا بأبيات الغزل والصبابة والدلال، على طريقة المحاكمة والتقليد للأقدمين، ليخلص ـ كما كانوا يقولون ـ من هذا الغزل المجلوب المصطنع إلى الهدف الذي يريده، وليدخل منه المدخل الذي قصد إليه، فهو يقول:

لي اللـــه مـــن عـــاني الفـــؤاد متيم ولـــوع بمغـــري بالـــدلال مـــنعم!

وفي كمـــا شـــاء الغـــرام ولـــو رمـــى بي البـين غـدرا بـين أنيـاب ضـيغم

صبـــور عـــلى جـــور الغـــرام وعدلـــه شـــكور عـــلى زور الخيـــال المـــسلم

وقد عشت عمري أتقي عادي الهوى وأســـحب أذيـــال الخـــلي المـــسلم

ألوم على دين الصبابة أهله — وأسخر من حال العميد المتيم

إلى أن رمى قلبك هواك بأسهم — تلتها يد البين المشتت بأسهم

هكذا نظم عبد الله فكري أبياتًا كثيرة من هذا الغزل المفتعل (حسب وصف العقاد) الذي لا يعبر عن صدق في التجربة، ولا في الشعور، قبل أن يبدأ في مدح الخديو.

(٤١)

وبالإضافة إلى جهد عبد الله فكري في إحيائه للكتابة العربية وتجديد لغة الدواوين فإن له فضلاً آخر لا يقل أهمية تمثل في دعوته إلى الأخذ بالعلوم الطبيعية الحديثة في صياغة ثقافتنا العربية وبرامجنا التعليمية [وإذا كان الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير مجلة «المقتطف» أقدم رواد الثقافة العلمية والمدافعين عنها، والمؤيدين لها عملا وإنتاجا، لا كلاما فإن عبد الله فكري هو أبرز من رعا هذه الفكرة وتبنى تنفيذها ، ويكفيني في هذا الصدد أن أشير إلى الإشادة المفرطة للدكتور حسين فوزي بكتاب «الفوائد لفكرية» وما احتواه من معلومات علمية وموسوعية ، وهي الإشاة التي ضمنها الدكتور حسين فوزي سيرة حياته : «سندباد في رحلة الحياة» .

ويتصل بهذا الإنجاز ما كان لقدرة عبد الله فكري على التوفيق بين الدين والعلم من أثر كبير فيها أخذ به الأزهر نفسه من حركات لإصلاح مناهجه العتيقة، وكتبه القديمة، وهو الجهد الذي كان للشيخ محمد عبده اليد الطولى فيه.

....

لكل هذه الإسهامات المتعددة الوئيدة كان حرصي الشديد على أن أتحدث عن عبد الله فكري بالذات حديثًا مطولا في هذه الدراسة التي تختص برواد الثقافة (أو النهضة) الموسوعية العربية .

(٤٢)

مؤلفاته:

نعتمد في سرد مؤلفات عبد الله فكري على الجهد الذي قام به الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه عنه، مع الإشارة إلى ما لم يشر إليه ، وأشارت إليه مصادر أخرى، وهو يشير إلى أن عبد الله فكري ترك مجموعة من المؤلفات والمصنفات تبلغ بضعة عشر كتابا،

طبع بعضها في كتب مستقلة قائمة بذاتها، بعد أن نشر مفرقا في بعض مجلات ذلك العهد كالمقتطف، وروضة المدارس، وصحيفة وادي النيل، ولايزال بعضها مخطوطا(!!) وإن كان مفقودًا (!!)

وسننقل للقارئ ما أورده الأستاذ محمد عبد الغني حسن مع التصرف والترتيب، مردفين بإضافاتنا على نصه، والفضل للأستاذ محمد عبد الغني حسن أولاً وأخيرًا .

ونلاحظ أن الأستاذ محمد عبد الغني حسن قد رتب هذه المؤلفات ألفبائيا دون الفصل بين المطبوع والمخطوط، على نحو ما فعلنا.

- أولا: المطبوعات:

- **«آثار الأفكار ومنثور الأزهار»** طبع منه تسع ملازم بمجلة روضة الدارس، بعد أن نشر على حلقات متوالية .

- **«الرحلة البعلبكية»**: رسالة صغيرة الحجم، تمثل أدب الرسائل الخاصة، وقد كتبها عبد الله فكري وبعث بها من بعلبك إلى صديقه الشيخ عبد المجيد الخاني، الذي كان من كبار ظرفاء الشام في وقته. (طبعت في كتيب ١٨٨٥) .

- **«الرحلة المكية»** وهي رسالة إخوانية أخرى بعث بها أيضا إلى صديقه الشيخ عبد المجيد الخاني، وقد طبعت مستقلة في كتيب (١٨٨٥) أي في نفس السنة التي طبعت فيها «الرحلة البعلبكية»، كما نشرت في كتاب «الآثار الفكرية» الذي جمعه ابنه أمين فكري باشا وجمع فيه شعر والده ورسائله ومقاماته وخطبه، وطبع في المطبعة الأميرية ببولاق (١٨٩٧)، وهذه الرحلة أكثر إيجازا من الرحلة السابقة، وتصف لنا قيام عبد الله فكري بفريضة الحج والزيارة.

- **«رسالة في المقارنة بين الوارد في نصوص الشرع والمقرر في علم الهيئة»** وهي الرسالة التي كتبها (١٨٧٦)، ونشرت في السنة الأولى لإصدار مجلة المقتطف بمناسبة الضجة التي أثيرت حول ما كتبه الدكتور يعقوب صروف عن إثبات دوران الأرض حول محورها وحول الشمس، وقد كان هذا المقال ـ أو الرسالة ـ للتوفيق بين العلم والدين، كما كان من الدوافع الأولى، في رأيي وتقديري، للأخذ بفكرة الإفادة من الطرق الموسوعية والعقلية

الموسوعية والاتجاه نحو استيعاب وتضمين العلوم الحديثة والطبيعية في الفكر العربي ، وبحث مدى توافقها مع ما قالت به علوم الشريعة .

وقد نشرت هذه الرسالة النفيسة موجزة في المقتطف بعنوان «**العلوم الطبيعية والنصوص الشرعية**»، ونشرت كاملة في مجلة روضة المدارس، وصحيفة وادي النيل بالعنوان الطويل الذي ذكرناه هنا .

وقد كتبت هذه الرسالة على هيئة محاورة بين فقيه وعالم من علماء الهيئة، ولقيت استحسانا كبيرا من العلماء المجددين. كما لقيت معارضة من آخرين : ففي الخزانة التيمورية رسالة مخطوطة بقلم محمد أفندي عنوانها: «**سبائك الذهب التبري في إلغاء كلام عبد الله فكري**»، ردا على هذه الرسالة.

● «**شرح بديعية الشاعر محمود صفوت الساعاتي**» وهو على حد وصف الأستاذ محمد عبد الغني حسن الشاعر المصري الرقيق الحلو الفكاهة، والحاضر البديهة، المتوفى سنة ١٨٨١، وهو من أعلام الشعر في القرن التاسع عشر .

ويشير الزركلي إلى أنه مطبوع لكن الأستاذ محمد عبد الغني حسن يذكر أنه لم يعثر على هذا الشرح مطبوعا ، كما يذكر محقق «حلية البشر» ولم يقف على نسخته الخطية .

● «**شرح ديوان ابن النبيه**» وهو شاعر من شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين، كانت له صلة وثيقة بالأيوبيين ومدائح كثيرة فيهم، وقد جرى عبد الله فكري في الشرح على طريقة القدماء من الاهتمام بالشرح اللغوي، والإعراب، والاستطرادات الأدبية والتاريخية، وقد طبع هذا الكتاب بالمطبعة العلمية (١٨٩٥).

● «**عجالة البيان على ديوان حسان**» وهو شرح لديوان حسان بن ثابت شاعر الرسول والدعوة الإسلامية، ولم يمض فيه عبد الله فكري إلى النهاية، بل أنجز شرح القصيدة الهمزية. وقد قدم عبد الله فكري هذا الشرح إلى مؤتمر المستشرقين (الثامن الذي انعقد في إستكهولم، وكان هو رئيسا لوفد مصر فيه، ولم تساعده الأيام على إتمام شرحه، فقد توفي بعد عودته من المؤتمر بقليل، وقد نشر هذا الشرح في مجموعة «**الآثار الفكرية**»، كما نشرت مقدمة الشرح في كتاب «إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا».

• «الفصول الفكرية للمكاتب المصرية» وهي رسالة في نحو اللغة العربية، قصد بها المؤلف أن تكون كتابا مدرسيا بأيدي التلاميذ، لتسهيل دراسة النحو عليهم وتيسيره، خصوصا بعد حملة الشيخ محمد عبده (١٨٨٠) على الكتب المدرسية وتأليفها في جريدة الوقائع ، ولعل هذا الكتاب هو أول محاولة معاصرة لتيسير النحو العربي قبل أن يقوم الأستاذ حفني ناصف وزملاؤه بمحاولتهم الموفقة في كتابهم المشهور «الدروس النحوية»، وقد طبع هذا الكتاب بمصر (١٨٨٣ و١٨٨٦ و١٨٨٩) على التوالي.

• «الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية» وهو يحتوي على فصول للمطالعة بالمدارس والمكاتب، وبعض الفصول بقلم المؤلف، وبعضها بقلم غيره، ولكنه تصرف فيها بما يناسب حالة التلاميذ، ويلائم مستوياتهم العقلية، وقد ظل هذا الكتاب مقررا ومقروءا في جميع مدارس مصر إلى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)، إلى أن حل محله كتاب «القراءة الرشيدة» لعبد الفتاح صبري وعلى عمر.

وقد طبع الكتاب على الحجر أول مرة (١٨٨٢) كما طبع (١٩٠٢)، وطبع في المطبعة الميمنية (١٩١٥) على هامشه حاشية الشيخ عبد الله العشماوي على كتاب الآجرومية في علم النحو.

وأفضل طبعات الكتاب وأصحها ضبطا للآيات والأحاديث النبوية تلك الطبعة التي قامت بها مطبعة المعارف بالفجالة (١٩٠٢) .

• «المقامة الفكرية في المملكة الباطنية» وهي رسالة جليلة مترجمة عن اللغة التركية بعد ترجمتها من بعض اللغات الأجنبية، فهي ترجمة عن ترجمة، لكن عبد الله فكري تصرف فيها بما يلائم المقام، وصاغها بأسلوب المقامات ، وأضاف إليها زيادات، وأنشأها على طريقة السجع لا على الأسلوب المرسل، وملأها بنوادر الحكم والأمثال وأبيات الاستشهاد في الشعر العربي، وهو يقصد بتعبير «المملكة الباطنية»: «مملكة النفس الإنسانية» بما فيها من قوى الخير والشر، ونوازع الصلاح والفساد. وقد طبعت هذه الرسالة طبعة مستقلة في مطبعة وادي النيل (١٣٨٩ هـ)، كما طبعت في مجلة روضة المدارس (١٣٩٠ هـ). (ولعل هذا الكتاب هو ما يشير إليه

الزركلي باسم «المملكة الباطنية»).

• «**موارد القرآن**» وهي رسالة لم تتم، في بعض ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الحكم والأمثال ومواضع الاستشهاد، في حل إشكال أو إجابة سؤال. وقد نشر منها قطعة في مجلة روضة المدارس مفرقة على ثلاثة أعداد، تبدأ من العدد الثاني من السنة الثانية (١٣٨٨ هـ = ١٨٧١ م).

• «**نظم اللآل في الحكم والأمثال**» وهو رسالة جامعة لطائفة كبيرة جدا من الحكم والأمثال العربية الشعرية، رتبها عبد الله فكري على حروف الهجاء.

كانت هذه الرسالة ضرورية في وقتها للمساعدة على عمل المطارحات الشعرية التي كانت تدور في مجالس ذلك العهد، حيث يبدأ أحد شهود الندوة ببيت من الشعر أوله مماثل للحرف الأخير من آخر بيت قيل، فهي مادة غزيرة مسعفة للمطارحات، وهذا فوق قيمتها الأدبية الأخرى بكونها ذخيرة عظيمة للاستشهاد بالشعر في المناسبات الملائمة، ولكن يؤخذ عليها في رأي الأستاذ محمد عبد الغني حسن أنها رتبت على حروف الهجاء في أوائلها ، ولو أنها رتبت على وفق الموضوعات والمعاني المتشابهة لكانت أكثر قيمة.

• وقد طبعت هذه الرسالة في المطبعة الميمنية في ست وخمسين صفحة.

(٤٣)

- ثانيا: المخطوطات:

• «**إتحاف المشتاق بأخبار العشاق**» وهو كما يدل عليه عنوانه يتضمن موضوعات تتصل بعشاق العرب وأخبارهم، وما روى من آثارهم، ولم يتم عبد الله فكري تأليفه، ولم يقدر له أن يطبع.

• «**تعليقات على منظومة أحمد خيري باشا في المواعظ والحكم**» وهو لم يطبع.

• «رسالة في الدينار» لم تطبع، ولم يهتد مؤرخونا إلى أصلها المخطوط.

• «رسالة فيما اتفق لفظه، واختلف معناه من بلاد مصر»، لم تطبع ولم يهتد مؤرخونا إلى أصلها المخطوط.

(٤٤)

وأخيرا فإننا ننقل عن الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه «**الأعلام**» ما أشار إليه من أنه اقتنى إضبارة من أوراق عبد الله فكري الخاصة، تشتمل على مسودة «رحلته» إلى إستكهولم، بخطه، غير تامة، و«ديوان شعره» بخطه أيضا، صغير، كتب عليه: «من نظم الفقير عبد الله فكري بن محمد بليغ بن عبد الله بن محمد بن عبد الله» وفيه مساجلات شعرية كانت بينه وبين بعض معاصريه كالأمير شكيب أرسلان، والشيخ الليثي، وأحمد فارس (الشدياق) صاحب الجوائب، ومسودة «أنموذج كتاب لتعليم صغار الأطفال» من تأليفه، وجزأين من «دفاتره» بخطه، كتب على أحدهما: «الجزء الثالث من الدفتر، لجامعة عبد الله فكري»، وفيهما فوائد في الأدب والاجتماع والجغرافية وغيرها.

(٤٥)

توفي عبد الله فكري في الساعة الثانية من صباح يوم عيد الأضحي (في أغسطس ١٨٩٠م)، وقد صحح الأستاذ محمد عبد الغني حسن ما وقع فيه كثيرون ـ ومنهم الأستاذ العقاد والزركلي ـ فذكر أنه توفي في أغسطس سنة ١٨٩٠م ـ لا كما جاء عند بعض المؤرخين المعاصرين من أنه سنة ١٨٨٩م ـ عن ستة وخمسين عاما، واشترك في رثائه وتأبينه أكبر شعراء ذلك الوقت وأدبائه، وعلى رأسهم إسماعيل صبري، وحفني ناصف، ومحمد عثمان جلال، والشيخ على الليثي، والأمير شكيب أرسلان، والعلامة اللغوي الشيخ الشنقيطي المعروف بابن التلاميذ.

وقد اشتهرت مرثية حفني ناصف لعبد الله فكري شهرة عظيمة، وكان مطلعها من الأبيات السائرة التي يتناقلها الرواة، كما كانت تختار في النصوص المختارة لمحفوظات المدارس حتى العقد الثاني من القرن العشرين، ومطلعها:

ليدع المدعون العلم والأدبا فقد تغيب عبد الله واحتجبا!

وقد طالت أبيات القصيدة حتى بلغت ستة وخمسين بيتا، افتن فيها الشاعر حفني ناصف في فنون القول، فأمر أدعياء البيان أن يظهروا في غير حرج ولا خوف، فقد مات الذي كانوا يرهبونه، وكانوا يخشون الظهور أمامه!

وخلاصة القول إن النقاد ومؤرخي الأدب أجمعوا على تقدير مكانته الأدبية، وصفاته الخلقية، حتى لم تكد تخلو قصيدة واحدة في رثائه من الإشارة في إيجاز أو إطناب إلى هاتين المزيتين.



الباب الثالث

نموذجان للموسوعيين

الفصل الخامس
أحمد زكي باشا
شيخ العروبة
١٨٦٧ ـ ١٩٣٤م

(١)

هو أحمد زكي بن إبراهيم بن عبد الله الملقب بشيخ العروبة.

ذكر الزركلي أن أباه كان ينتمي إلى آل النجار في عكا في فلسطين، وذكر آخرون أن أباه من أهل المغرب، دفعته التجارة إلى أن يستقر في يافا أولا، ثم في رشيد، حيث تزوج فتاة من آل سويدان في ضواحيها، ثم استقر به الطواف في الإسكندرية.

ولد أحمد زكي باشا بالإسكندرية،وقد تولى تربيته أخوه الأكبر القاضي محمود رشاد، وكان ذا إلمام بقضايا الفكر.

وتلقى تعليمًا مدنيا حتى تخرج في مدرسة الإدارة والحقوق .

وأتقن الفرنسية وكان ملما أيضا بالإنجليزية والإيطالية .

بعد تخرجه في مدرسة الإدارة والحقوق عين مترجما في مجلس النظار في ١٨٩٢، وترقى في المناصب سكرتيرا ثانيا وسكرتيرا أول حتى وصل إلى سكرتارية مجلس النظار، وهو المنصب الذي يعرف الآن بأمين عام مجلس الوزراء، ونال الباشوية في أثناء ذلك، وأحيل إلى المعاش ١٩٢٢ أي قبل أن يصل الستين .

(٢)

كان أحمد زكي مثقفًا مؤسسًا ومعتزًا بموسوعيته ، وكان حفيا بإنشاء المؤسسات العلمية الوطنية على النمط الأوربي الحديث ، ويذكر له أنه اشترك في إنشاء الجامعة المصرية، وكان من أعضاء مجلس إدارتها، وأمينا لها، كما كان عضوا في الجمعية الجغرافية الخديوية (السلطانية) وسكرتيرا لها، وكان أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

وقد ساعد اللجنة التي قامت بترجمة دائرة المعارف الإسلامية، فأتاح لها الإفادة مما كان يملكه من الكتب المخطوطة والمطبوعة ، وأرشدها إلى ما تستعين به في مكتبته : «الخزانة

الذكية»، وقد أفاد محررو هذه الدائرة من علمه ، وضبطوا بفضله معرفتهم بالمصطلحات وبالنصوص.

قال الأمير شكيب أرسلان في وصفه: «كان يقظة في إغفاء الشرق، وهبة في غفلة العالم الإسلامي، وحياة في وسط ذلك المحيط الهامد» وفي هذا القول تلخيص أمين لإنجازه الفكري والثقافي فقد امتدت إسهامات أحمد زكي باشا إلى شؤون اللغة العربية واللغات الأخرى والمصطلحات ، و الفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، والقانون، والاقتصاد السياسي.

(٣)

على مدى ثلاثين عاما (١٨٩٢ ـ ١٩٢٢) كان له الفضل الأكبر في الارتقاء بلغة دواوين الحكومة المصرية الحديثة إلى لغة فصحى مفهومة غير مبتذلة ولا متقعرة، فقد تولى بريادة فائقة الارتقاء بلغة الدواوين الحكومية من خلال الأوامر والتوجيهات، وبوسع المطلع على وثائق التاريخ أن يدرك مدى ما كانت تحفل به المكاتبات الحكومية وأوامر مجلس النظار (فيما قبل عهده هو) من ألفاظ عامية وتركية أو كليشيهات.

ويتصل بدور أحمد زكي في ترقية أسلوب الكتابة العربية الحكومية أو الوظيفية نجاحه الفذ والمبكر فيما استشعره من أن من الواجب عليه أن يجد ألفاظا عربية دقيقة للمعاني وللمبتكرات الجديدة، أي أن يضع مصطلحات الحضارة كما نسميها الآن ، وكأنه كان عليه أن يقوم وحده ، ومبكرا بدور مهم من أدوار المجامع اللغوية.

ومن الألفاظ التي ابتدعها أحمد زكي ولا تزال تستعمل: «السيارة» بديلا عن الأوتومبيل، و«الدراجة» للعجلة، و«صحافي» بديلا عن جورنالجي. وهو الذي سمى الأندلس بـ«الفردوس المفقود» حين كتب عن رحلته إليها.

وبعد فترة من تفوقه في وضع المصطلحات وجد أحمد زكي نفسه مطالبا بأن يبين عن منهجه في اختيار الألفاظ والمقابلات العربية، وهكذا دخل إلى مرحلة التنظير والتأصيل التي أثبت تفوقه فيها، كما أثبته في مرحلة الريادة ، ومع سمو منهجه في التعريب فإنه لم يكن ليلقى قبول بعض الأساتذة القدامى.

(٤)

أما الترجمة فقد كانت الميدان الثاني من الميادين التي بزغ فيها ، ونال الشهرة والتقدير، وبخاصة أنه كان سريع الترجمة دقيقها، كما كان حريصًا على شرح أسباب تفضيله لترجمة ما على ترجمة أخرى .

وعلى صعيد متصل قدم أحمد زكي باشا خبرته المهنية في الترجمة في كتابه «أسرار الترجمة».

وبفضل خبراته في ترقية الكتابة ووضع المصطلحات وفي الترجمة (أي في الميدانين اللذين تحدثنا عن نبوغه فيهما) أعد أحمد زكي لإصدار قاموس عربي ضخم ، لكنه فيما يبدو لم يوفق إلى الانتهاء منه وإلا فقد كان حريا بمؤرخيه أن يشيروا إلى مخطوط له .

(٥)

على صعيد ثالث يذكر لأحمد زكي باشا أنه هو الذي أدخل حروف (أو علامات) الترقيم إلى الكتابة العربية معتمدا على ما تواضع عليه الأوروبيون في أمرها، وقد أقنع قراءه ومعاصريه أن هذه العلامات تعوض وظيفة النبر الصوتي التي يقوم بها المتحدث أو الخطيب أو المحاضر، وقد سمى الفاصلة التي نعرفها الآن بهذا اللفظ باسم بدائي هو الشولة، كما استخدم ألفاظ التقويس والتضبيب للدلالة على وضع الأقواس وعلامات التنصيص ، ومن الطريف أنه كان يسمي ما نعرفه الآن بعلامة التعجب علامة الانفعال.

ويتصل بهذا الإنجاز أنه هو الذي تولى اختصار حروف الطباعة، وكان صندوق الطباعة يتضمن أكثر من تسعمائة شكل من أشكال الحروف، فاختصره إلى ١٣٢ حرفا فقط، وقد كان هذا إنجازا قبل أن تدخل الحواسيب في تطبيقات طباعة الحروف .

وقام برحلة إلى أوروبا مع مدير المطبعة الأميرية ، فزار النمسا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وتركيا للنظر في الخطوات العملية لاختصار صناديق الطباعة ، وتسهيل طريقة الجمع المطبعي ، وعاد بعد أن توصل إلى اقتراحات عملية.

(٦)

على صعيد رابع عرف أحمد زكي باشا كواحد من أبرز المثقفين الوطنيين ذوي الصلات الدولية في ميادين الفكر والعلم ، وقد انتدب لحضور مؤتمر المستشرقين الدولي بفيينا في ١٨٩٢ واستغرقت رحلته إلى هذا المؤتمر وعودته ستة أشهر (١٤ أغسطس ١٨٩٢- ١٤

فبراير ١٨٩٣) وقد صحبه في هذه الرحلة الشيخ محمد راشد كما حضر المؤتمر معه من مصر العالم الألماني كارل فولرس الذي كان مديرًا لدار الكتب وتولت شركة توماس كوك تنظيم رحلته على نحو استحقت معه إشادته بها .

و هكذا اتصل بشخصه وسفره و بحكم مناصبه بمؤتمرات المستشرقين . ومثل مصر في المؤتمر التاسع الذي عقد في لندن ، والمؤتمر الذي عقد في أثينا (١٩١٠م) .

وعلى المستوى العربي فقد كان على علاقة بأنداده في البلاد العربية الأخرى : محمد كرد علي في دمشق ، وأنستاس الكرملي في العراق ، وطاهر الجزائري وكانت له معهم مراسلاته ومناقشاته .

(٧)

على صعيد خامس عرف أحمد زكي باشا كواحد من أوائل الأساتذة المحاضرين في الجامعة المصرية القديمة، وكان أستاذا جامعيا نموذجيا على نحو ما تشهد بذلك انطباعات مَنْ تتلمذوا عليه ، وفي مقدمتهم طه حسين ، وكان في محاضراته كما كان في إسهاماته العلمية ومشاركاته المجتمعية شعلة نشاط، دائم الحركة، مجيدا في المحاضرة والخطابة .

وقد خاض معارك فكرية وأدبية كثيرة كان له فيها السبق المجلى ، ومنها معاركه مع محمد مسعود وزكي مبارك .

(٨)

على صعيد سادس كان أحمد زكي باشا صاحب مكتبة علمية ذات مواصفات عالمية،كما كان جامعا محبا للمخطوطات، وقد ضمت مكتبته ما يربو على عشرة آلاف كتاب، وقفها للعلم وهي الآن من المكونات المهمة في مقتنيات دار الكتب المصرية.

وقد وظف رحلاته العلمية في الاتصال بدور الكتب والمكتبات والمجتمعات العلمية والمستشرقين والاطلاع على المخطوطات العربية في العواصم الأوروبية، وقد أفاد من هذه الرحلات والمؤتمرات معرفة مباشرة ووثيقة بكثير من المستشرقين، كما أفاد معرفة عميقة بالمخطوطات في المكتبات العالمية، وقد بذل الجهد في تصوير ما وقعت عليه يده من المخطوطات.

وفي زيارته لليمن اطلع على كثير من مخطوطاتها، واقتنى نسخة مصورة من كتاب «الإكليل» للهمذاني (في تاريخ اليمن القديم) وأودعها دار الكتب المصرية، وإليه يرجع الفضل في شهرة هذا الكتاب.

وسوف نتناول جهده في تأسيس وجمع وترتيب مكتبه وقيمة هذة المكتبة ومصيرها بعد أن نفرغ من تعداد ميادين تفوقه ومؤلفاته .

(٩)

في صعيد سابع كان أحمد زكي باشا من رواد تحقيق التراث ، وهو صاحب فكرة إنشاء كيان لإحياء الكتب العربية القديمة، وقد تولى بنفسه تصحيح ومراجعة عدد من الكتب التي طبعتها الحكومة المصرية .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أنه استصدر من مجلس الوزراء موافقه على مشروع لإحياء الأدب العربي في ٢٤ أكتوبر ١٩١٠ وقد اعتمد له المجلس (٩٣٩٢) جنيهًا على أن تصدر الكتب المحققة بإشراف دار الكتب المصرية .

ويذكر له أنه حقق لابن المقفع كتابيه الشهيرين : الأدب الصغير والأدب الكبير كما حقق للكلبي كتابيه : الأصنام ، وأنساب الخيل ، وحقق للجاحظ كتابه «التاج في أخلاق الملوك» وحقق لابن مسكويه : «تجارب الأمم» كما حقق لابن فضل الله العمري : «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» . وللصفدي نكت الهبان ، وحقق بعض أجزاء «نهاية الأرب» للنويري .

ويتصل بهذا الجانب من إنجازه أنه عُني بكتابة وترجمة بعض الكتب في القضايا الحضارية التي تناولها بقلمه، ومن هذه الكتب: «نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام»، كما نشر كتابا بعنوان «ذيل الأغاني» .

(١٠)

ويأتي إسهامه في أدب الرحلات ليضيف إليه مجدًا ثامنا فقد كان رحالة كاتبا، وكتب كتبا من وحي رحلاته العلمية وغير العلمية، منها: «الدنيا في باريس» وقد نقلت عنه بعض النصوص في ثلاثية باريس التي نشرتها عن قريب ، و«السفر إلى المؤتمر» عن رحلته إلى مؤتمر المستشرقين ، وله مخطوط «عجائب الأسفار في أعمال البحار» .

وكان حريصًا على أن يسجل انطباعاته عن المدن التي يزورها ، كما كان ينشر مقالات عن هذه الرحلات في الصحف المصرية .

وعلى سبيل الإجمال فإنه زار بعض العواصم مرتين : روما وباريس ولندن ولشبونة .

وكذلك كانت له جولات في بلاد العروبة، وقد زار بلاد الشام وكتب عنها خواطره في فصول مطولة.

وفي زيارته لإسبانيا التقى بالملكة كريستينا الوصية على العرش ، ونال منها وسام إيزابيلا.

ويتصل بنبوغه في أدب الرحلات ما كان له من اهتمامات جغرافية موسوعية وهو الذي ترجم عن اللغة الفرنسية «مصر والجغرافيا»، كما ألف «قاموس الجغرافيا القديمة».

وتعددت بحوثه في تصحيح الأعلام الجغرافية والأسماء ونحوها، وبعض التراجم وأسماء الشوارع، ولاسيما أعلام الأندلس العربية الأصل المحرفة الآن.

(١١)

ونأتي إلى الميدان التاسع أو الميدان الكبير المتوج الذي أعطاه لقبه المشهور به وهو لقب شيخ العروبة ، وربما يصدق القول بأنه كان الداعية الأول للتمسك بفكرة العروبة ، حتى لو لم تكن دعوة العروبة مرتبطة بفكرة القومية العربية ، وربما كان توجهه العروبي أرقى من توجه أصحاب القومية العربية التالين له .

ولا جدال في أن أحمد زكي كان من الأوائل الذين عبروا صراحة وفعلا عن تشبعهم بمجد العروبة والإسلام.

وفي الحقيقة فإنه كان سابقا على عبد الرحمن عزام في الدعوة إلى العروبة، فقد تولى بنفسه إنشاء «الرابطة الشرقية» بعد تقاعده، وكان اللفظ في ذلك الوقت مستخدما للدلالة على الشعوب التي ترتبط بنا بالإسلام أو العروبة أو بهما معًا ، وكان يصرح بوجهة نظره في أهمية الرابطة الشرقية وفكرتها بأن في توجهه إلى الشرق والعروبة وضعا لمصر في زعامة الشرق بديلا عن اللحاق بالغرب في ذيله، ونظرا لحماسه الشديد لهذه الفكرة فقد لقب بشيخ العروبة، وهو اللقب الذي عرف به منذ ذلك الحين وحتى الآن.

وعلى المستوى المعرفي فقد عُني بجمع تاريخ العرب في كتاب «تاريخ المشرق»، واهتم

بالكتابة عن أمجاد العرب في التأليف من خلال كتابه «موسوعات العلوم العربية».

وقد آثر بعد أن لقب بشيخ العروبة أن يلبس العقال والعباءة كشيوخ العرب، وقد فتح بيته للزائرين في كرم نادر، وأصبح بيته دارًا لاستقبال والتقاء الزائرين العرب وأدبائهم، وكان يحتفل بهم احتفالات باذخة ، يجمع لها وجوه الحياة السياسية والاجتماعية مما قوى من روابط التعارف ونقل فكرته إلى حيز فعلي، ومكن لها بأفضل الوسائل.

■

وفي هذا الإطار كان أحمد زكي صاحب تفكير حضاري رائد يؤكد توجهاته بخطوات إنشائية على أرض الواقع على نحو ما خبره من عناية الأوربيين بإثبات انتماءاتهم والتوكيد عليها .

وفي هذا الصدد فقد دعا إلى ترميم المسجد الأقصى في القدس، وإلى بناء أضرحة لابن خلدون في مصر، وأبي الفداء في حماة، والمعري في المعرة.

(١٢)

ومن الإنجازات الرائعة في حياة أحمد زكي باشا رجل الفكر والأدب أنه كان من الذين توسطوا لحل الخلاف بين ملكي السعودية واليمن وهي جهود عظيمة ومخلصة تحتاج إلى توثيق تاريخي يحفظ للرجل دوره العظيم.

(١٣)

وبالإضافة إلى هذا كله كان أحمد زكي باشا كاتبا دؤوبا، وقد كانت له مقالات شبه يومية في الصحف المتعددة وكان دائم الكتابة في الأهرام والهلال والمقطم . وقد لمح الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه عن «حياة الرافعي» إلى أن مصطفى صادق الرافعي كان يساعد شيخ العروبة في كتابة مقالاته، لكن الأستاذ محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين» دحض هذا التلميح تماما بأدلة قاطعة.

(١٤)

وعلى سبيل الإجمال فإن أحمد زكي باشا كان مع أحمد تيمور باشا أفضل أدباء عصره المشتغلين بالحضارة العربية، والمتيمين بها ، وقد عرف بتفوقه محاضرا وكاتبًا وباحثًا ومحققًا ، خطيبا ، وكان محافظا على لغته وعروبته ووطنيته، يقبل نقد غيره برفق إذا

أصابوا، ويعترض على مَنْ لم يصب بعنف، في رسائل خاصة أو على صفحات الجرائد.

كتبه المؤلفة باللغة العربية:

- ابن زيدون أو صفحة من مجالس الأنس في ليالي الأندلس، القاهرة، ١٩١٤م.
- أربعة عشر يوما سعيدا في خلافة عبد الرحمن الأندلسي، مصر، ١٣٠٣هـ.
- الترقيم في اللغة العربية، القاهرة، ١٩١٢م.
- تقرير مرفوع لناظر المعارف عن مدرسة المعلمين الناصرية، [نشير هنا إلى ما هو غير معروف من أن هذا كان هو الاسم الذي أطلق على دار العلوم في فترة من الزمن] مطبعة نظارة المالية.
- الحضارة الإسلامية (أو دروس في الحضارة الإسلامية)، مصر، ١٩١١م.
- خلاصة وجيزة على مباحث وأعمال لجنة إصلاح وتحسين الحروف العربية، المطبعة الأميرية، ١٩٠٣م.
- الدنيا في باريس، ١٩٠٠م.
- ذيل الأغاني، بهذا الاسم ذكره الزركلي وسماه أنور الجندي (ملحق الأغاني)، وذكر أنه لم يتمه.
- السفر إلى المؤتمر، بولاق ١٨٩٤م، والمقتطف ١٨٩٣م.
- عجائب الأسفار في أعماق البحار، ذكره الزركلي وذكر أنه لم يطبع.
- قاموس الأعلام الأندلسية، ذكر أنور الجندي أنه لم يتمه.
- قاموس الأعلام القديمة.
- قاموس الجغرافية القديمة (بالعربي والفرنسي)، مصر ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩ م.
- وصف مجالس المعددات والنائحات.
- المذكرات الجغرافية للمدارس الثانوية، بالاشتراك مع حسن على البدراوي، مطبعة محمد الوراق، ١٩١٢.
- معجم الكلمات الكلية.

- معجم الكلمات المضعفة.
- مفتاح القرآن.
- ملخص الخطبة التي ألقاها أحمد أفندي عزت بلندن في ٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٢م في جلسة مؤتمر المستشرقين الدولي التاسع (عربي وفرنساوي)، بولاق، ١٨٩٢م.

(١٥)

وله من الكتب المكتوبة باللغة الفرنسية:

- بيان الوسائل الموصلة إلى إحياء الآداب العربية بالديار المصرية.
- الطيران في الإسلام.
- علاقة المصريين مع الأندلسيين.
- نقد العهدة النبوية الموجودة صورتها في دير الطور.

(١٦)

وله من الكتب المترجمة :

- تاريخ المشرق في الأزمان القديمة، نشر أولا في المقتطف ١٨٩٩م ، ثم في الهلال ١٩١٦ : مختصر مترجم عن تاريخ ماسبيرو طبعة بولاق.
- رسالة في المعارف العمومية بالديار المصرية، وبيان ما يلزم إدخاله فيها من الإصلاحات الضرورية : عهد محمد سعيد باشا، مصر ١٣٠٥ هـ (وهي الرسالة التي تعرف على أنها تقريره عن التعليم في مصر، أو حالة التعليم في مصر).
- الرق في الإسلام . ترجمة لرسالة أحمد شفيق باشا، بولاق ١٣٠٩ هـ، ونشره أيضا في الهلال ١٩١٦، ١٩٣٤ .
- مرجريت أو غادة الكاميليا، رواية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤م، المكتبة الجارية ١٩٢٠م.
- مصر والجغرافيا للدكتور فريدريك بنولا بك، بولاق ١٣١٠ هـ، الهلال ١٩١٦م.
- قبيل الإعدام - رواية.
- نتائج الإفهام في تقويم العرب قبل الإسلام، دار الكتب.

(١٧)

وله في ميدان التحقيق :

- **الأدب الصغير**، لابن المقفع.
- **الأدب الكبير**.
- **الأصنام**، لهشام بن محمد الكلبي، المطبعة الأميرية ١٩١٤م ، دار الكتب المصرية١٩٢٤م، ١٩٢٨م، ١٩٩٨م.
- **أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها**، لهشام بن محمد الكلبي، ط ٢، دار الكتب المصرية ١٩٤٦م.
- **التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ**.
- **التبري من معرة المعري**.
- **تجارب الأمم**، لابن مسكويه.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لابن فضل الله العمري، الجزء الأول.
- **معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية لأمين واصف**، مطبعة المعارف١٩١٢، ١٩١٦.
- **نكت الهميان في نكت العميان**، للصفدي.
- **نهاية الأرب**، للنويري حقق أجزاء منه.

(١٨)

ونعود الآن كما وعدنا ، إلى الميدان السادس من ميادين تفوق أحمد زكي لنلقي عليه بعض الضوء الذي لا بد منه في تصوير نشأة جانب حضاري مهم في الثقافة العربية الموسوعية .

كان أحمد زكي كما ذكرنا أبرز نموذج للذين عرفوا بالولع بالكتب وجمعها واقتنائها وإهدائها في النهاية للوطن ، وبقدوته في هذا المجال لعب دورا كبيرا في نشأة المكتبات الخاصة وفي دعم المكتبة الوطنية (دار الكتب) على وجه العموم . .

ضمت مكتبته الفريدة نوادر قيمة من المطبوعات والمخطوطات النفيسة،

والمستنسخات بالقلم أو بالتصوير الفوتوغرافي المتاح في ذلك العصر .

(١٩)

من الجدير بالذكر والفخر والإعجاب أن أحمد زكي باشا كان يخصص نصف راتبه الشهري لشراء الكتب، والنصف الثاني لسائر حاجاته .

وكان يتابع أخبار الوفيات للبحث عن الأعلام الذين لهم مكتبات، فما أن تصفى أي تركة حتى يشترى منها ما يستطيع .

- اقتني مكتبة البرنس محمد إبراهيم .
- اقتني مكتبة جبرائيل بك المجلع عام ١٩١٤م بما قيمته ٣٠٠ جنيه ذهبا .
- اقتني مكتبة محمد بك واصف النفيسة، وقد كلفته نحو ألفى جنيه .
- اقتني مكتبات على باشا إبراهيم (الأول) وزير المعارف ، والشيخ رضوان العفش، وحسن حسني باشا.

(٢٠)

ظل أحمد زكي باشا يسعى وراء غايته كلما ذهب إلى أوروبا في مهمة علمية .

- عندما سافر إلى أوروبا أول مرة (١٨٩٢م) اقتنى مجموعه ضخمة من الكتب الأوربية المعنية بالشرق العربي .
- وفي زيارة للآستانة (١٩٠٤م) استطاع أن يحصل على عدد كبير من الكتب المطبوعة والمخطوطات.
- وفي ١٩٠٩ زار الآستانة وزار مكتبة السلطان في قصر أندرون بطبقو سراي ، ونسخ منها بالفوتوغرافيا عددا من ذخائر المؤلفات العربية.
- وفي دمشق استطاع بمساعدة أصدقائه ومعارفه أن يجمع مجموعة قيمة من الكتب المطبوعة والمؤلفات .

كذلك فقد استحضر عشرات الكتب من الهند والعراق.

- ولم يتوقف أحمد زكي عن استحضار المستنسخات وكانت في ذلك الوقت بطريقة الصور الفوتوغرافية.

على أن الأهم من الاقتناء والتجميع أن أحمد زكي باشا استوعب ما في خزانته من مصادر وراجعها وعلق على هوامشها ، وفهرسها في جزازات مرتبة على حروف المعجم، كل طائفة منها على حسب الفن أو الباب الذي يرجع إليه.

- وقد خرج بمكتبته أو خزانته عن حدود الفردية فأتاحها للآخرين حتى أصبحت الخزانة مرجعا لمن يريد أن يعد بحثا، سواء كان من الغربيين أو الشرقيين.

(٢١)

كان الأستاذ محمد كرد علي معجبا بهذه المكتبة وقد زارها وكتب عنها مقالة في مجلة «المقتبس» عام١٩١٢ ذكر فيها أن المكتبة تستحق أن تكون مرآة يرى فيها الطالب معارف الشرق وعلومه، سواء كانت من نفثات الشرقيين العرب مسلمين أو غير مسلمين، أو من قرائح الإفرنج.

ومن الطريف أن الأستاذ أنور الجندي أشار إلى أن أحمد زكي باشا وأحمد تيمور كانا أشبه بفرسي رهان في حلبة واحدة في عنايتهما بالمخطوطات والمكتبات القديمة، وإن اختلفا في الأسلوب، فزكي باشا له طريقته الاستعراضية كلما عثر على كتاب أو اكتشف نصا ، فإنه سرعان ما يعلن ذلك ويقيم الدنيا ويقعدها، بينما كان أحمد تيمور يكتفي بأن يطلع عليه أصدقاؤه ورواد ندوته.

(٢٢)

وربما كانت نهاية هذا الفصل مقامًا لاستعراض نموذج البيروقراطية المصرية القاتلة في معاملة التراث الوطني الحديث ، على نحو ما حدث مع مكتبة أحمد زكي باشا ، وسنلخص قصة الحكومة في المكتبة وقصة المكتبة مع الحكومات المتعاقبة في نقاط متوالية .

- وافق مجلس النظار على طلب أحمد حشمت باشا ناظر المعارف في أكتوبر سنة ١٩١٠م بتخصيص مكان خاص لأحمد زكي باشا في دار الكتب المصرية وإعطائه رخصة دائمة.
- ظلت الخزانة مفتوحة الأبواب كل يوم من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى منتصف الليل في دار الكتب يتوافد عليها الطلبة الباحثون ويستفيدون منها .
- كان أحمد زكي باشا لا يألو جهدا في توسيع نطاقها والعمل على نموها باقتناء الكتب المطبوعة والمخطوطات حتى أصبح المكان على سعته يضيق عن هذه الزيادات المتتالية .
- رأى أحمد زكي باشا من أجل تعميم النفع، وقف أرض تبلغ مساحتها ١٥٠٠ متر مربع يمتلكها في جهة المنيرة، حيث تكثر المدارس التابعة لنظارة المعارف (مدرسة المعلمين الناصرية، ومدرسة الطب، والصيدلة، ومدرسة المساحة وغيرها) وأراد أن يقام على هذه الأرض مبني لتلك الخزانة وتكون هي وما عليها من البناء وقفا لعموم طلبة العلم ، بحيث تكون له النظارة عليها مدة حياته، وتكون بعد وفاته مشمولة بنظر ديوان عموم الأوقاف مستقلة بنفسها وقائمة بذاتها .

- وافق مجلس النظار على الترخيص لنظارة المعارف في نقل الخزانة إلى الدار التي تبنى لها في الأرض التي تبرع بها لها صاحبها، وذلك عقب إتمام البناء وتسجيل الوقفية .
- في أغسطس عام ١٩١٣م بدأت حملة دشنتها «الأهرام» لتقريظ العمل.

(٢٣)

على أن الأمور لم تمض في سلاسة إذ حدث ما عكر صفو العلاقات بين الحكومة وأحمد زكي باشا ، ومن ثم تأثرت المكتبة العظيمة بنزاعات صغيرة :

وقع خلاف بين أحمد زكي باشا والحكومة عام ١٩٢١ ، فطلب إليه نقلها من دار الكتب، فأوقفها وقدمها هدية للأوقاف ، وحرر الوقفية في ٢١ من أغسطس ١٩٢١م في محكمة مصر الشرعية واشترط عدة اشتراطات منها أن يكون مقرها مدرسة السلطان الغوري، وأن تبقى مستقلة باسم «الخزانة الذكية» فلا تضاف إلى دار كتب أخرى، أو مدرسة ما، وأن تكون المطالعة في قبة الغوري.

لكن وزارة الأوقاف لم تكن بطبعها مهيأة لمثل هذه المهمة ، فأضافتها إلى قسم المساجد، ولما هطلت الأمطار في ديسمبر ١٩٢٥م كادت تغرق لولا أن الحارس استعان بمهندس لجنة الآثار العربية.

ظلت مكتبة شيخ العروبة هكذا حتى صدر قرار وزير الأوقاف في ديسمبر ١٩٣٥م بنقلها من قبة الغوري إلى دار الكتب المصرية، وظلت حبيسة مهجورة في الغرفة رقم ١٨ من مبنى دار الكتب بالقلعة.

انتقلت الخزانة بعد ذلك ، وحفظت مع المكتبات الخاصة الأخرى في الطابق الثامن بمبنى دار الكتب على كورنيش النيل ثم سرى عليها ما سرى على المكتبات الأخرى من تجليات مفسدة لرؤساء دار الكتب في عهد البيروقراطية والمظهرية .

(٢٤)

وقد شغل أحمد زكي باشا نفسه في سنوات حياته الأخيرة ببناء مسجد عظيم جمع له من فنون العمارة والزخرفة ما عبر عن ذوقه وعطائه وحبه للإسلام وحضارته وفنونه .

لا يزال ذكر أحمد زكي يحظى بالتكريم ، والتقدير له ، ولمؤلفاته ، ومترجماته ، ومكتبته وريادته وجهوده .

وقد كتب الأستاذ أنور الجندي كتابا عنه بعنوان «أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة»، صدر في سلسلة «أعلام العرب» سنة ١٩٦٦م.

الفصل السادس
أحمد تيمور باشا
١٨٧١-١٩٣٠م

(١)

كان جد أحمد تيمور ممن صحبوا محمد علي باشا وعمل معه وعين كاشفا فمحافظا، أما والده إسماعيل باشا تيمور فوصل إلى رئاسة الديوان الخديوي، وقد توفى بعد ولادة ابنه أحمد بسنتين، وقيل بل بعدها بشهور قليلة.

ولد في ٥ من نوفمبر ١٨٧١م ، ومن الطريف أنه ولد بعد شيخ العروبة أحمد زكي باشا بأربعة أعوام ، وتوفي قبله بأربعة أعوام ، وقد عاش كلاهما في القرن التاسع عشر عمرًا يقل عامًا عما عاشه في القرن العشرين إذ عاش تيمور ٢٩ عامًا في التاسع عشر وثلاثين في القرن العشرين ، وعاش أحمد زكي باشا ٣٣ عامًا في التاسع عشر و ٣٤ عامًا في القرن العشرين .

تولت شقيقته الكبرى عائشة التيمورية تربيته هي وزوجها محمد توفيق، وقد حفظ بعض القرآن على مدرس خاص ، وتلقى مبادئ العلوم في مدرسة كلير الفرنسية، وكانت أرقى المدارس في وقتها، ثم انصرف إلى تعليم نفسه تعليما متميزا في بيته ومكتبه ومجالس العلماء، وكان ممن تتلمذ عليهم الأستاذ الإمام محمد عبده، والشيخ حسن الطويل، والشيخ الشنقيطي.

أتقن الفارسية والتركية على المرحوم حسن عبد الوهاب، وتعلم من أستاذه محمد عبده أن تكون له ندوة كندوته.

وقد توفيت زوجه وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، فلم يتزوج بعدها حفاظًا على مشاعر أبنائه ، وصار لهم أبًا وأمًا ، وتوفى ابنه محمد تيمور قبل وفاته بثماني سنوات ، فأصيب بالقلب وزاد من مرضه أن ابنه الثاني محمود اعتلت صحته .

(٢)

كان أحمد تيمور عالما موسوعيا عن حق كما كان مثقفًا مطلعا وبحاثة، وقد خصص

حياته للبحث والتحقيق والكتابة والدراسة والتصويب، لكنه آثر ألا يسارع إلى نشر مؤلفاته لأنه ظل معنيا بتهذيبها في كل حين، وقد تألفت بعد وفاته (كما سنذكر) لجنة لنشر المؤلفات التيمورية ، ونشرت عددا كبيرا من أعماله، ومع هذا لا تزال بعض أعماله القيمة مخطوطة.

كان أحمد تيمور باشا صاحب شخصية ناقدة قادرة على البحث والتحليل، وكان لسعة أفقه وغزارة علمه يجد أن من واجبه أن يقدم لدراساته وآرائه بالحديث عن المعلومات الوافرة التي تخص ما يتحدث عنه ، وهكذا ظهرت في بعض أعماله خصال موسوعية يظنها البعض مرتبطة بالنقل والترتيب وحدهما، بينما هي موهبة متكاملة تقود إلى إنشاء العلم إنشاء على نحو جديد شامل، ولعل ما فعله في كتابه «الأمثال العامية» يدل على هذا بوضوح، فالكتاب مرجع لا غنى عنه لكل دراسة فولكلورية على أي مستوى، كما أنه مرجع للهجة العامية، ولتصريفات الجملة المتبعة فيها.

قال محمد كرد علي: «كنت إذا عرض لي أو لبعض أعضاء المجمع إشكال لغوي أو تاريخي، أو أحببت أن أعرف كتابا في موضوع يهمني البحث فيه، لا أجد من يشفي غلتي، خصوصا بعد فقد أستاذنا الجزائري، غير أحمد تيمور».

وذكر محب الدين الخطيب أن العلامة الشنقيطي صرح بأنه لم ير في مصر مَنْ يفهم كلام العرب مثل الشيخ محمد عبده، وأحمد تيمور.

(٣)

يصدق عليه أنه من النبلاء الذين عاشوا للعلم ، وكان أغنى ما عنده في الوجود: أبناؤه، والدين الإسلامي، واللغة العربية، وخزائنه الخاصة.

كان بالإضافة إلى هذه السمات العلمية دمث الخلق، كريم الطبع، وقد تحلى بكثير من الصفات الشخصية النادر اجتماعها من الجود والكرم، والتواضع، ونكران الذات، وبذل المعروف من جهده وعلمه وماله، وكان منقبضا عن الجمهور، لكنه كان حفيا بالعلماء ومجالسهم.

وكان له نشاط اجتماعي وخيري ومدني، وقد شجع إنشاء جمعية الشبان المسلمين، وبذل لها من ماله. كما شارك في أنشطة جمعية الهداية الإسلامية التي رأسها الأستاذ الشيخ

محمد الخضر حسين.

وعلى الرغم من أصله الكردي فإن تيمور باشا كان يتعصب للعروبة تعصبا تاما، وقد رغب إليه نور الدين مصطفى بك أن ينضم إلى جمعية تورانية تضم غير المصريين من الأجناس الأخرى فرفض رفضا تاما، وكان تعصبه للغة العربية وللحضارة الإسلامية مضرب الأمثال، ولم يكن يؤرخ إلا بالتاريخ الهجري، وقد اضطر البنك السويسري إلى أن يقبل منه شيكاته وتعاملاته بهذا التاريخ.

(٤)

أما أفضاله المؤسسية والحكومية فتتمثل في نشاطه في دار الكتب، حيث اختير عضوا في مجلس إدارتها فأبدى الآراء الذكية في تنظيم الدار وتنسيق مقتنياتها على النحو الذي استمر بعده. كذلك اختير عضوا في لجنة إصلاح الأزهر عام١٩٢٤م ، فكانت آراؤه التي شارك بها صدى لتعاليم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

ويذكر له أنه اشترك بجهد وافر في لجنة إحياء الكتب العربية التي أسسها الأستاذ محمد عبده.

وقد اختاره الملك فؤاد لعضوية مجلس الشيوخ الأول ، ومنحه الباشوية .

■

كان بيت تيمور في درب سعادة بحي باب الخلق صالونًا ثقافيًا دائمًا وكذلك كان قصره في الزمالك، وكذلك كانت عوامة تيمور في النيل، وعزبته في قويسنا ، وكان المثقفون من العراق والشام واليمن والمغرب العربي يتوافدون إلى هذه الصالونات الأدبية الأربعة ، يقيمون بالقرب منها ويترددون عليها بالأسابيع ، حيث يراجعون ما انتهوا إليه على ما هو متاح من الكتب ونوادر المخطوطات التي تنفرد بها.

(٥)

كان لأحمد تيمور فضل كبير على التراث العربي في ميادين عديدة ، فقد شرع مبكرًا فيما عرف به من نشاط ضخم في جمع المخطوطات العربية، وكان حريصا على الحصول على صور فوتوغرافية للمخطوطات العربية من مكتبات روما والآستانة وأثينا وباريس والفاتيكان، وقد ضمت خزانة كتبه عشرين ألف مجلد، وقد سجل كثيرا من التعليقات على هوامش مخطوطاته وصحف كتبه، وكان لا يبخل بمخطوطاته على مَنْ يريد الانتفاع

بها، بل كان يرسلها إلى مَنْ يطلبها على نفقته ، وسوف نتحدث في نهاية هذا الفصل عن مكتبته وتكوينها وقيمتها وفضلها .

(٦)

على صعيد علم التاريخ يرجع إليه الفضل في استكمال الحلقة الناقصة في التاريخ المصري ، ما بين تاريخ ابن إياس المصري وبين تاريخ الجبرتي، وقد كتب مخطوطا لم ينشر بعنوان «ذيل تاريخ الجبرتي».

ومن المعروف أن أحمد تيمور هو الذي تولى مراجعة المواد التاريخية في دائرة معارف القرن العشرين التي وضعها الأستاذ محمد فريد وجدي وسجل تصويباته في مخطوط بعنوان «نقد القسم التاريخي من دائرة معارف فريد وجدي».

ووضع كتابا مهما مطبوعًا ومتداولًا ومقدرًا إلى أقصى حد عن «الآثار النبوية».

وتولى في رسالة مطبوعة تحقيق موضع قبر الإمام السيوطي.

(٧)

عُني أحمد تيمور بالجوانب الحضارية والبروتوكولية والمراسمية في التاريخ الإسلامي، فألف كتابا مرجعيا مطبوعًا عن «الألقاب والرتب»، وقد كان هذا الكتاب بمثابة مرجع قيم لأصحاب القرار في البلاد العربية حين رغبوا في العدول عن الألقاب التركية إلى الألقاب العربية، كما ألف كتابا آخر عن «تاريخ العلم العثماني» لا يزال بمثابة المرجع الأول في مجاله.

ووصلت أعمال أحمد تيمور في هذا الميدان إلى ذروة عالية في تاريخ الحضارة بكتابيه المرجعيين «التصوير عند العرب» و«لعب العرب»، وهما كتابان من أهم كتب تاريخ الحضارة.

كما عُني بتتبع التراث الهندسي في الحضارة العربية تتبعا فنيا وتاريخيا وجماليا في دراسة مهمة بعنوان «تراجم المهندسين العرب : أعلام المهندسين في الإسلام».

والحق أن أحمد تيمور يعد رائدا فذا في دراسات التاريخ الحضاري العربي التي لم تزل بحاجة إلى عناية، ويدلنا على هذا كتابه في تراجم المهندسين فهو تاريخ حي لجانب من أهم الجوانب في الحضارة الإسلامية، وفيه انتصار للعقلية العربية في مجال الهندسة، ودحض للافتراءات التي أساءت تصوير النضج العقلي لدى الخلفاء المسلمين في استعانتهم بخبراء

أجانب كاستعانة الوليد بن عبد الملك بالصنّاع الروم في أبنيته.

وقد أثبت بما حقق من وقائع تاريخية وروايات مدى ما وصل إليه الفن الهندسي العربي من قدرة ونجاح، كما برهن على أن الاستعانة بالأجانب كانت عن ثقة بالنفس وعن رغبة في زيادة التجويد.

ولم يقف أحمد تيمور عند حدود الحديث عن هندسة التصميم والمعمار، لكنه كان حفيا بالإشارة إلى فروع الهندسة التطبيقية التي نبغ فيها العرب كالنقش والدهان والرسم والزخرفة، كما كان تيمور حريصا على تحقيق المصطلحات الهندسية التي حفلت بها الحضارة الإسلامية على مدى قرونها المتصلة.

(٨)

كان أحمد تيمور باشا سابقا لعصره في لفت الأنظار إلى أهمية دراسة دور الحضارة الإسلامية في العلوم التطبيقية المختلفة. وقد احتفظ بذخيرة قيمة من الآثار الإسلامية من نقود وساعات أثرية وآلات فلكية وأوانٍ وعيون زجاجية، فضلا عن مجموعة من الصور الخاصة بأبطال التاريخ: صلاح الدين الأيوبي، وسليم الأول، وعبد القادر الجزائري.

وكان تيمور باشا رائدًا لعلوم وفنون التسجيل الحي والوثائقي للتاريخ (قبل أن ينمو هذا الفن بطريقة مؤسسية ودولية) وقد أذنت له الحكومة المصرية في تصوير «الخليج المصري» قبل ردمه ليسجل حياة خليج كان له الأثر الكبير في معمار القاهرة فترة من الزمن.

ويتصل بهذا ما كان لأحمد تيمور أيضا من جهود متميزة في تاريخ الفقه الإسلامي والفرق الإسلامية ، وله كتابان مطبوعان «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة» و«الزيدية ومنشأ نحلتهم».

(٩)

ولأحمد تيمور باشا نشاط متميز في ميدان التراجم، وقد وضع كتابا مرجعيا في ضبط الأعلام، ووضع مرجعًا في غاية الأهمية في التراجم: «أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري»، وعلى الرغم مما كان متوقعا لهذا الكتاب من شمول وسعة، فإنه يُروى أن تيمور باشا مزق أكثره بسبب ما وجده من إلحاح معارفه عليه بأن يكتب عن أقاربهم بما لا يتفق مع حقائق التاريخ.

ويميل منهج أحمد تيمور في كتابة التراجم إلى منهج شبه قصصي ، حتى إن الدكتور زكي مبارك فيما نقله عنه الدكتور محمد رجب البيومي أشار إلى أن روح القصاص كانت تكمن لدى الرجل وحين غلبتها روح البحث فرت منه إلى ولديه محمد ومحمود.

كذلك ألف أحمد تيمور باشا «ذيل طبقات الأطباء» ولا يزال مخطوطا، إضافة إلى جهده في الترجمة للمهندسين في كتابه السابق الإشارة إليه.

كما اختص تاريخ أعلام أسرته بكتاب مطبوع هو «تاريخ الأسرة التيمورية».

(١٠)

ولأحمد تيمور جهود لغوية رائدة، وقد كان عضوا في مجمعين لغويين من المجامع اللغوية الباكرة التي لم يقدر لها الاستمرار في الحياة، وله دراسة متميزة عن «السماع والقياس» وأخرى عن «أسرار العربية»، وقد طبعت هاتان الدراستان.

كما أنه ترك دراستين تصويبتين مهمتين تم طبعهما عن «تصحيح لسان العرب» و«تصحيح القاموس المحيط»، وبهذا كان لأحمد تيمور فضل كبير في علم متن اللغة ، وفي ارتياد آفاق دراسات أو علم تصحيح أخطاء المعاجم .

وقد ألف كتاب «معجم اللغة العربية» ليرد به علي الدعوة التي قام بها المغرضون لنصرة العامية علي العربية ، كما ألف كتاب البرقيات ، ليشهد بفضل اللغة واتساع صدرها.

كما وضع فهرس خزانة الأدب في ١٣ فهرسا (مفتاح الخزانة) .

(١١)

أما دراساته في تاريخ الأدب العربي فتنم عن إلمام واسع وتجويد منشود، وله منتخبات من الشعر العربي لا تزال مخطوطة، كما أن له دراسة مطبوعة عن «أوهام شعراء العرب في المعاني»، ودراسة أخرى مخطوطة عن «أبيات المعاني والعادات»، وله كتاب مطبوع شهير مما نسميه الآن كتب «التعبير الوظيفي» المبكرة هو كتاب «البرقيات للرسالة والمقالة»، وقد حظى هذا الكتاب بشهرة متصلة.

كذلك كان تيمور باشا من أصحاب المنتخبات الشعرية التي عبرت بوضوح ودقة عن رقي الذائقة الشعرية لديه وقد ترك مخطوطًا بعنوان : «المنتخبات من الشعر العربي ».

وقد عُني بدراسة الفكر الديني لأبي العلاء المعري في دراسة قيمة : «أبو العلاء المعري وعقيدته»، مقدمًا نموذجًا للدراسة المتأنية التي تصل إلى حقيقة الفكرة وجوهرها بعد استقصاء شامل، وقد انتهى فيها إلى أن ما يدل على إيمان أبي العلاء صريح في لفظه، وأن الذي يُتوهم محتمل لوجهين، وكان في إنصافه للمعري يذهب إلى الدعوة إلى فهم آرائه من زاويتها الإيمانية ، أي ما يوافق من أحد الوجهين.

(١٢)

إما إسهامه الذي لقي ـ ولا يزال يلقى ـ شهرة وذيوعا واعتمادا عليه حتى الآن، فهو إسهامه في ميدان الأدب الشعبي وبصفة خاصة في جمع وتحقيق وفهرسة دراسة الأمثال العامية، وقد جمعها في مجلد ضخم ورتبها حسب حرف الهجاء الموجود في أول المثل، وشرحها شرحا وافيا دون تزيد، كما أشار بلمحة سريعة إلى أشعار العرب وأقوالهم التي عبرت عن مضامين هذه الأمثال العادية.

والحق أن لأحمد تيمور جهدًا متصلًا في المجال المتصل بلغة الشعب والأدب الشعبي في كتب لا يزال بعضها للأسف مخطوطا، منها «الألفاظ العامية المصرية» و مخطوط «الكتابات العامية» وهو مطبوع ومخطوط «قاموس الكلمات العامية» في ٦ أجزاء.

(١٣)

وقد كان أحمد تيمور قارئا متابعا وكاتبا ناقدا لما ينشر في للمجلات الثقافية الصادرة في عهده، كالمؤيد والهلال والفتح والهداية والزهراء والمقتبس والمقتطف.

وتمثل تعليقاته على بحوث ومقالات غيره ثروة من التحقيق والتدقيق والعلم الغزير .

وأشهر أعماله في هذا المقام كتابه المطبوع « ضبط الأعلام » وهو كتاب قيم لا يستغني عنه المحققون ولا الكتاب .

وقد أوردنا في موضع آخر من كتبنا نماذج لرسائله العميقة والمفيدة في ضبط المفردات والأعلام والكتابة والإملاء والنصوص .

(١٤)

ونأتي إلى عدد من المؤلفات ذات الطابع المعرفي والموسوعي :

أما كتابه «النوادر» أو نوادر المسائل فمخطوط ثمين جمع فيه ما وقعت عليه عينه من طرائف الأخبار والروايات.

وله بالإضافة لهذا مخطوط كتاب «معجم الفوائد» الذي يعتبره الذين اطلعوا عليه بمثابة الكتاب الأم لمؤلفاته كلها .

أما كتابه «التّذكرة التّيمورية» فهو ابرز مؤلفاته الموسوعية المختصرة المفيدة للمشتغلين بالدراسات الأدبية، والتاريخ، والبحث العلمي. وهو في حقيقته دائرة معارف في الدِّين، وشؤون المجتمع، والأجناس والسكان، والطوائف، والبحار، والأنهار، وقد كان الوصف (القريب من العلم) لهذه السمات الموسوعية أنها الفوائد والنوادر .

وقد كتب الأستاذ خليل ثابت في تقديمه لهذا الكتاب:

«إن مؤلّفه لم يتناول فيه من المسائل ما هو معروف في مظانه، وما يتناقله العلماء في المؤلفات المشهورة، وما يتوافر للمطالع أن يصل إليه بالرجوع إلى فهارس الكتب مما هو قريب التناول بأقل بحث وأقل نظر، وإنما اختص هذا المؤلّف النادر المثال، بل الفريد المثال، أن حوى اللقطات الغريبة واللفتات الرائعة مما تنطوي عليه بطون الكتب والأسفار، في اللغة والعلم والأدب والتاريخ، ولم تقتصر تلك اللقطات واللفتات على ما هو مطبوع من نفائس الكتب العربية، بل تضاف إليها لقطات ولفتات من نفائس المخطوطات التي احتوت عليها الخزانة التّيمورية الشهيرة التي تحتل ركنًا مهمًا من أركان مخطوطات دار الكتب المصرية، التي حرثها صاحبها حرثاً، وقتلها بحثاً، واستصفى منها الزُّبَدَ، وجمع الشذور، ولمّ الشّتات، وضم كل شكل إلى شكله، وقرن الشيء بضدّه، حتى تكون لديه النظائر والأشباه، كما تكون لديه النقائض والمفارقات. وقد وضع المؤلّف في ذاكرته ونصب عينيه أكثر من سبعمائة موضوع، اتخذها رؤوس مباحث، وأمهات مسائل، ثم دار في خزانة كتبه في أبواب المعارف المختلفة، وظلّ يقرأ وهو يُذكي الفطنة، ويُحِدّ النظر، حتى إذا لمح شيئًا يتصل بأحد هذه الموضوعات التي جعلها مباحث ومسائل، استخرجه من مصدره، واستبقاه عنده ليضيف إليه ما يكمله ويلائمه، ولا يزال كذلك حتى تتألف من كل موضوع صفحة حافلة بشتى التوجيهات إلى المصادر والمراجع والأصول».

(١٥)

وضرب الأستاذ خليل ثابت بعض الأمثلة الحية لما احتواه كتاب أحمد تيمور من فوائد ونوادر فقال :

«وإن القارئ الباحث ليجد في «التّذكرة التّيمورية» من الفوائد والدرر ما لا يصل إليه إلا بعد بحث طويل مرهق، مثال ذلك: إن أول ملوك الفرس (جيومرت كلشاه) ومعناه ملك الطين. وأن (الأتابك) معناه أبو الأمير. وأن (إرم ذات العماد) قيل إنها اسم لدمشق».

«وأن (الأرنؤود) هم طائفة من الألبانيين. وأن (أمير الجيوش) هو بدر الجمالي. وأن (بابليون) يعرف بقصر الشمع. وأن (بحر الروم) هو البحر الأبيض المتوسط. وأن (بحر الظلمات) هو المحيط الأطلسي. و أن (بحر القلزم) هو البحر الأحمر. وأن (الجاشنكير) هو الملك المظَّفر سلطان مصر. وأن (الدّربند) هو باب الأبواب».

«وأن (دهاة العرب) هم: الحُباب بن المنذر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وقيس ابن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بُدَيْل، وزياد بن أبيه».

«وأن (الرّوزنامجة) هي كُرّاسة جمع بها الصّاحب بن عبّاد ما كان يكتبه إلى ابن العميد من بغداد لما زارها، يصف ما شاهده فيها ومن اجتمع به، وأن فيها تنديد كثير ببعض مشهوري الشعراء والأدباء».

«وأن (زقاق سبتة) هو مضيق جبل طارق. وأن (زياد بن أبيه) استلحقه معاوية بن أبي سفيان بأبيه أبو سفيان ، وأن (شمهورش) هو القاضي الجنّي».

«وأن (الشّهب السبعة) هم: الشّهاب ابن حجر، والشّهاب بن الشّاب التائب، والشّهاب بن أبي مسعود، والشّهاب بن مبارك شاه الدمشقي، والشّهاب صالح، والشّهاب الحجازي، والشّهاب المنصوري».

«وأن (الغُزّ) طائفة من الترك. وأن (قبر قِس بن سَاعدة الإيادي) في جبل سمعان. وأن (الكُرد) أصلهم من العرب. وأن (المباهلة) وقعت بين الحافظ ابن حجر العسقلاني وبين ابن الأمين بسبب ابن العربي. وأن (الهياطلة) هم أسلاف أتراك خلخ وكيجنية بطخارستان».

(١٦)

وكان أحمد تيمور باشا من التجرد والامانة بحيث أرشد ، في كتابه هذا ، إلي مواضع مهمة من البحث والتحقيق التي كان أسلافه قد أتموها، ومن ذلك إشارته إلي أن الثعالبي أجاد البحث في موضوع إلحاق (واو عمرو) في كتابه «خاص الخاص» وكذلك الجرجاني

في كتابه «الكنايات». وإشارته إلى أن محمد جميل بيهم قد تحدث أحسن الحديث عن (يأجوج ومأجوج والسدّ) في العدد الخامس من «مجلة المقتطف». وأن هناك كلام مفيد للباحثين عن (اليمين والشمال) في «كتاب الحيوان» للجاحظ.

(١٧)

ونأتي الآن إلى الوصف الذي وصفه به نجله الأديب العظيم محمود تيمور حيث قال :

«لو أن متصفحا يتتبع سيرة «أحمد تيمور» فيعرف كيف كان ورعا شديد الورع ، متحرجا بالغ التحرج ، مطبوع النفس علي حفاظ وانقباض ، مؤثرا للعزلة ما وسعه الإيثار ، زاهدا أيما زهد في حومة الحياة وملتطم الناس.. فأي نهج يتمثله المتصفح لصاحب تلك السيرة ، حين يعامل بنيه ، في ذلك العهد البعيد ؟ وعلي أي نحو تراه يسوس فلذات كبده ، وهو لهم راع ، وعليهم رقيب ؟»

« ألقيت علي نفسي هذا السؤال ، لأجيب عنه بما شهدت ، لا بما يعمد إليه متصفح السيرة من تكهن واستنباط ، فما راء كمن سمع ، ولا من خال كمن تخيل.. ولعل الجواب ألزم بي ، أنا الذي كنت أحد أبناء «أحمد تيمور» حوله ، فشهدت كيف كان يقوم علي تربيتنا ونحن إخوة ثلاثة ، متلاقون علي عاطفة وشعور ، وإن اختلفنا في الميول والنزعات بعض الاختلاف».

« في تلك الحقبة التي نشأنا فيها ، منذ نصف قرن مضي ، كانت التربية المنزلية تبيح للآباء نحو أبناءهم ضروبا من القيود ، كما تفرض علي الأبناء لآبائهم ألوانا من التقاليد ، فما كان لولد أن يسلك غير المسلك الذي يرضاه أبوه ، وما كان لأب أن يدع لولده في مراحه ومغداه سبيلا إلي فكاك.. فالإمرة حق الأبوة ، والطاعة واجب البنوة ، ومن شذ من الآباء لا يأمر فهو متهاون موصوف بالتفريط ، ومن تمرد من الأبناء لا يطيع فهو مستخف موصوم بالعقوق. ولم تكن للأبناء حيلة أو وسيلة إلا الملاءمة بين ما يأخذهم به آباؤهم الحكام المسيطرون وما تهفو إليه نفوسهم الغضة التواقة إلي الحرية والانطلاق».

« وكانت هذه الملاءمة هي المخادعة والاستخفاء ، وهي التفنن في إبداء الظواهر علي الوجه الذي لا يثير غضبا ولا ملامة ، فلكل ولد مهربه إلي مأربه ، في ستر من الله أو ستر من الشيطان! وكانت الفنون والحرف في تلك الحقبة الغابرة تتفاوت درجاتها في تقدير الناس ، فمنها الرفيع ومنها الخسيس ، وربما كان فن الصحافة وفن التمثيل أو حرفتهما

أبخس الفنون والحرف نصيبا من حظوة العامة والخاصة علي السواء ، ولعل الجمهور يومئذ كان يتخذ من ألقاب السوء والإصغار لقب «الجرنالجي» و«المشخصاتي».. فإن تولع بالصحافة أو التمثيل كريمٌ علي أهله ، تمصصوا شفاههم رحمة له وإشفاقا عليه! » .

(١٨)

هكذا تفوق الأديب الكبير محمود تيمور في تصوير طبيعة تربية والده العظيم لأبنائه :
« وحسبي في تجلية ما كان من صنيع أبينا في تربيته لنا ، وإشرافه علينا في تلك الحقبة التي أسلفت وصفها ، أن أذكر أننا في منزلنا الذي كنا نأوي إليه ، ونحن من أبينا علي مقربة ومرقبة ، أنشأنا لأنفسنا صحيفة خاصة ، نصدرها في المرة بعد المرة وأقمنا مسرحا للتمثيل، نخرج فيه الروايات واحدة بعد واحدة . وكنا نحن ومن أخذ أخذنا من الصحب ، نتولي في الصحيفة مهمة التحرير والطبع والنشر ، كما نضطلع في المسرح بشئون الإخراج والتمثيل والتفرج والانتقاد! » .

« وامتلك قيادنا علي مر الأيام هوي الصحافة والتمثيل ، فتعلقنا بهما كل التعلق وتعمقنا فيها كل التعمق ، حتى إن أوسط الأخوة زاول التمثيل في المسارح العامة علي أعين الناس ، وحتى إننا معا أصدرنا صحيفة السفور خالصة للأدب منشورة علي الجمهور ، وبذلك أصبحنا نعد من محترفي الصحافة أو أشبهاه المحترفين. وكنا نري أبانا يمتعض من ذلك شيئا ، ولكن في ترفق واتئاد ، وينهانا عن التمادي والسرف ، ولكن في غير جزم ولا مصادرة. ويتحيل لتوجيهنا إلي الدرس والاستذكار دون أن نحس منه وطأة التوجيه ومرارة الإلزام. ولم يكن يقف في طريقنا إلي ما يعده الآباء من لهو الصبا وعبث الشباب ، وإنما كان يجنح إلي محاسنة وملاينة ، فيناقشنا مناقشة الأنداد للأنداد ، ويشير علينا بما يحب ويرضي ، تاركا لنا أن نسلك السبيل الذي نختار».

« عاش بين التلال من كتبه ، فلم يأخذ أحدنا نحن أبناءه بأن يكون معه يقرأ له ، أو يملي عليه ، أو يستملي منه ، أو يطالع بجانبه بل يدع ذلك لأنفسنا خاصة ، شئناه أو أبيناه، فلم يفرض علي أينا أن يحذو حذوه فيما يستن من سنة وما يرتضي من سلوك».

(١٩)

وقد أشار أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن الذي حفزه إلي الكتابة عن أحمد تيمور باشا ، « كانت ناحية لها دلالتها البعيدة عن نفسيته الكبيرة ، ذلك أنه ترك

مخطوطات كثيرة من قلمه ، كان يستطيع دون جهد ما أن ينشرها علي الناس ، فلم يشأ الإعلان عن نفسه بذلك، وقد كان يشتري المخطوط القديم بعشرات الجنيهات ليضمه إلي مكتبته التي تقدر بعشرات الآلاف . ولكنه لم يُعن بنفقة ضئيلة ينشر بها إنتاجه الزاهر ، فرارا من الشهرة التي يتكالب عليها الكتاب. وقد لحظته عناية الله فقدرت لمؤلفاته بعد وفاته لجنة علمية تقوم علي نشرها العلمي الدقيق وذلك ما يطمئنا إلي عدالة القدر ، إذ الأعمال بالنيات».

«وقد عاش الرجل في عصر كانت المقالات العلمية به تجد تشجيعا ماديا من أصحاب الصحف ، وحسب الكاتب أن يكتب فينشر ، فذلك كل ربحه مما يعاني من البلاء ، ولكن تيمور كان يتتبع المقالات الجيدة في صمت ثم يسأل عن أصحابها المغمورين ، فإذا وجدهم من ذوي الحاجة إلي التشجيع قدر لهم مكافأة طيبة ، لكل مقال يقرؤه ، وقد أشار الأستاذ محمد علي غريب إلي شيء من ذلك فيما كتبه عن نفسه ، مما يدل علي أن العلامة تيمور رحمه الله كان ذا رصيد خلقي ممتاز ، فهو يسقط غيثه حيث يصادف الأرض الطيبة في صمت هادئ ، كيلا يثير حوله الضجيج» .

«إن رجلا متواضعا ينحو هذا النحو المثالي في منهجه ، لجدير بترداد مآثره ، وبخاصة إذا كانت حياته شذوذا غريبا بين أبناء طبقته ، فأكثر من نشئوا نشأته لم يكونوا يفكرون في علم أو أدب أو جهاد ، بل عكفوا علي لذائذهم الفانية في النوادي المترفة والسهرات الصاخبة. وقد غشيت عقولهم طبقات من الجهل المتراكم ، كما غشيت نفوسهم طبقات أخرى من التبلد والجمود» .

ويصل الدكتور محمد رجب البيومي إلى أن يصف تيمور باشا بقوله :

«راهب يسبّح في دير العلم ويواصل الجهد الحافل في البحث والتنقيب ، مضحيا بأعز ما يملك من صحة ومال ووقت» .

(٢٠)

ومن المشهور أن الإمام الشهيد حسن البنا تحدث عن معرفته بفضل أحمد تيمورباشا وفضل أصحابه في كتابه «مذكرات الدعوة والداعية» حيث قال :

«كان ينفس عن نفسي كذلك التردد علي المكتبة السلفية ، وكانت قرب محكمة الاستئناف ، حيث نلقي الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي

الإسلامي القدير «السيد محب الدين الخطيب» ، ونلتقي بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية ، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين التونسي ، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، وأحمد باشا تيمور رحمه الله تعالى...»

(٢١)

حظيّ الأستاذ تيمور بكثير من التقدير في كتابات المنصفين والمؤرخين ، كما كتب عنه الأستاذ محمد كرد علي في «ذكريات شخصية» و الشيخ محمد الخضر حسين في مجلة «الهداية» ، و خير الدين الزركلي في مجلة «المقتطف» الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة «المنار».

وقد جمع الشيخ محمد ناصر العجمي ما كتب عنه في كتاب قدم له كل من الدكتور عبد الله بن يوسف الغنيم رئيس مجلس إدارة الصندوق الوقفي للثقافة والفكر، والدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق، ومن مقدمة الأستاذ العجمي ننقل قوله:

«حفظت لنا كتب التراجم أخبار العلماء المغرمين بالكتب والعناية بها، والاهتمام بشأنها، والحرص الأكيد على الحصول عليها، والشغف بكل ما له صلة بها، فهي حديثهم العاطر، وجليسهم المسامر، يغذون أرواحهم منها في كل وقت، ويقطفون من ثمارها التي لا تنتهي، وإن من أولئك الذين كان لهم غرام بالكتب وفرح بالحصول عليها، العلامة الجليل والأديب اللغوي أحمد تيمور باشا صاحب أعظم خزانة خاصة في القاهرة، فقد انصرف رحمه الله تعالى بدء حياته العلمية إلى جمع نفائس الكتب والمخطوطات واستجلبت له من شتى الأماكن وكان يدفع أثمانها بسخاء، ويرى أن المال يذهب ويعود، وأن الكتاب النادر لا يعوض بالمال، ولهذا قصده تجار الكتب والوراقة، وكانوا يختصونه بأحسن الكتب والمخطوطات، وكان هو يختار منها الجيد، وينتقي أحسنها فيضعه في مكتبته».

«ولم تكن سمة العلامة أحمد تيمور باشا تقف عند هذا الحد، بل وصلت إلى العناية الشديدة بترتيب مكتبته، وتقسيمها عدة أقسام، وخدمتها بالفهارس المفصلة، وكان لا يدخل في مكتبته كتاب إلا وقرأه واحتفى به، وقد دعل هذه المكتبة حقًا مشاعًا للعلماء والباحثين من جهات الشرق وأنحاء الغرب، حيث وقفها ووقف عليها المال الذي يكفل لها البقاء، وما زال الانتفاع بها إلى يومنا هذا، وكانت له مجالس علمية وأدبية مشهورة تعقد بداره أو قصره أو ذهبيته في النيل، ومشاركة ثلة من رجالات القرن الماضي مثل العلامة

الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، ومحمود سامي البارودي، وغيرهم كثير من الأدباء والفضلاء».

(٢٢)

وهذه أبيات من قصيدة الأستاذ محمد كرد علي :

أهـذا الـدجي والـصبح مـا زال خافيًـا
أم الـصبح وافي حائـل للـون داجيـا

أقلّـــب وجهـــي في الحيـــاة فـــلا أرى
لذيـذًا وكـان العـيش بـالأمس زاهيا

حمامـــة وادي النيـــل راع حـــشاشتي
هتافـك إذ أرسـلته اليـوم شـاجيا

سـقى دوحـك الوسـمي وهنـا فـما لنـا
نـرى غـصنه الميـاد أغـبر داريـا

نعـي عبقـري الـشرق تميـور فاغتـدى
لمعنـاه قلـب الـشرق كـالقرح داميـا

حنانيـك عـز العلـم والمجـد والهـدى
فقـد كـان علامـا مجيـدًا وهاديـا

ترحـــل بـــالتقوى وأبقـــى وراءه
ثنـاء كـنفح المـسك يـسطع ذاكيـا

رعـى الله قـبرًا بـل رعـى الله روضـة
تبوّأهـا مـن كـان للعهـد راعيـا

(٢٣)

ومن مقدمة الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ننقل قوله :

«كان عظيمًا من عظماء العصر، جمع إلى العلم والمعرفة الخلق الكريم، والسجايا الحميدة، والتواضع المحبب، وكان يسرع إلى تلبية من يطلب عونه، ويقدم بالرضا والارتياح من المصادر والمراجع النادرة، ما يسعف الباحثين والدارسين ليؤدوا للعربية

وعلومها خير ما عندهم، فتعلقت القلوب بحبه، وأجله إخوانه وأصدقاؤه، وأحلوا بهم المكانة الرفيعة، وكما فارق دنيانا إلى الخلود أحس عارفوه جسامة ما نزل به، وتتابعوا يتحدثون عنه، ويعددون مناقبه ومآثره في مقالاتهم وخطبهم إكبارًا له، وتقديرًا للمنزلة التي كان له في نفوسهم.

«وإني لآمل وقد نهض الأستاذ العجمي بعمله على خير وجه أن يجعله توطئة وتمهيدًا لعمل ثان يكمل الأول، هو دراسة آثار الرجل العظيم بعد أن طبع أكثرها، وصارت في متناول الطالبين، لتتجلى صورته واضحة القسمات، بيّنة السمات، تفصح عن صاحبها بأجلى بيان، وتكشف عما قام به في سبيل العربية وازدهارها» .

(٢٤)

ونأتي الآن إلى ما وعدنا به القارئ من حديث موجز عن خزانته العامرة التي كانت تضم أكثر من عشرين ألف مجلد عربي ، ما بين مطبوع ومخطوط. كما كانت تضم من المصادر الإنجليزية والفرنسية ، ما يتصل بآداب العربية .

وقد استنسخ لها بالصور الفوتوغرافية من نفائس مكتبات أثينا وروما والآستانة وباريس والفاتيكان كثيرا من ذخائرها العربية.

ولما ذهب تيمور باشا لأداء فريضة الحج سنة ١٣١٢ و شاهد بالمدينة المنورة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت هام بها بما تحتويه من نوادر المؤلفات وغرائب المخطوطات ، فنسخ صورة من فهرسها الجامع ، وأخذ يبحث عما تضمنته من مجلدات.

وعندما أراد الشيخ طاهر الجزائري المحقق الكبير أن يتصرف في مكتبته بالبيع بعد احتلال فرنسا للشام، رأى أن يقدمها لأحمد تيمور بدلا من أن تذهب للأجانب.

(٢٥)

أجمع مَنْ كتبوا عن تيمور أنه كان منقطعا لمكتبته التي كانت أغنى مكتبة في مصر بعد دار الكتب والأزهرية، وأنه كان يسعى كل حين إلى ما يضمه إليها، وصارت الكتب تسعى إليه.

وقد حفلت هوامش مقتنياته بتعليقاته فكان في المعاجم يعلق على هوامشها بما عن له، كما فعل مع لسان العرب، والقاموس المحيط، وكان في غيرها كلما مر على معلومة يراها

تستحق التدوين، دونها منسوبة إلى مصدرها في كراس منفصل عن الكتاب.

ولما كانت هذه المعلومات ذات موضوعات شتى فقد آثر أن يخصص لمعلومات كل موضوع «كراسة» خاصة بها حتى لا تختلط المعلومات ويتعذر العثور عليها، وقد ذكر أسماء كثير من هذه الكراريس في معجم العاميات.

نجح تيمور باشا في أن يحيط بمقتنيات مكتبته إلمام المدقق الباحث، وكان يدون بخطه على أغلب مخطوطات مكتبته ما يفيد اطّلاعه عليها، ويسجل على أول المخطوطات بخطه «قرأناه»، وهكذا كان حريصا على قراءة المؤلفات بمكتبته قراءة واعية، ودراستها دراسة دقيقة، والتعليق عليها، حيث كان يدرس التراث ويصنفه ويصححه أو يوضحه إن لزم الأمر، ومن شدة عنايته بخزانته أنه قام بنفسه بعمل فهارس وافية لها في سجلات خاصة مبوبة تبويبا دقيقا.

(٢٦)

وكان لتيمور مساعدون ينسخون له أندر الكتب في الطب واللغة والتاريخ من الشام والعراق والحجاز واليمن والمغرب، كما نسخ هو نفسه عددا من نفائس المخطوطات بخط يده.

وقد بدأت المكتبة في درب سعادة بالقاهرة، ثم نقلها إلى عزبته في قويسنا بمحافظة المنوفية، وهي إحدى مزارعه التي كان يؤثرها على غيرها، لذا لجأ إليها عندما ضاقت به العاصمة بسبب ضوضاء المدينة، وبعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده الذي كان يسكن بجواره، قرر الرحيل إلى مزرعته ورأى أن ينقل معه مكتبته إلى قويسنا ورتبها في خزائنها حيث كان يرجع إليها ليقرأ ويكتب، وقضى محمد كرد علي والشيخ طاهر الجزائري في ضيافته بضعة أيام يقرأ عليهم أسماء الكتب، وقام محمد كرد علي بوصفها في المقتبس (عام ١٩١٢)، إلا أنهما أشارا عليه بنقل الخزانة من قويسنا، خوفا من تعرضها للحريق، إذ إنها ملاصقة لبيوت الفلاحين الذين يضعون الخوص والعيدان على أسطح بيوتهم، فإذا اشتعلت النيران انتقلت من بيت إلى بيت فتحرق البيوت.

ومنذ بدأ في جمع مكتبته لم يبخل على باحث من الشرق أو الغرب إلا أعاره ما أراد من كتب ومخطوطات إذا تأكد أنه سيستفيد منها.

وقد أثنى المستشرق د. ماكس مايرهوف على مكتبته ودورها العظيم ووصفها بأنها

«مكتبة نادرة الوجود»، تعد من أتم وأفخر المكاتب المرتبة.

وقال المعلوف عن هذه المكتبة: «هي أكبر خزانة في مصر بعد داري الكتب السلطانية والأزهرية ، ولكن ما فيها من النفائس قد لا يوجد فيها».

وقد أهدى أحمد تيمور باشا دار الكتب المصرية ١٨.٠٠٠ مجلد تضم أمهات نادرة لخلاصة الكتب المصرية عبر العصور، و أهدى مجمع دمشق العلمي ٤١٨ قطعة نقود أثرية، و٣٤ ختمًا حكوميًا يرمز إلى كافة العصور التي مرت بها الحضارة الإسلامية.

(٢٧)

عقب وفاته شكّلت لجنة برئاسة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد باشا ، لنشر المؤلفات التيمورية وقد عنيت هذه اللجنة بنشر أعماله التي لم تنشر من قبل، مثل: تصحيح لسان العرب، أسرار العربية، معجم الفوائد، الكنايات العامية، الحب والجمال عند العرب، تصحيح القاموس المحيط، أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، الأمثال العامية...

ومن حين لآخر يتجدد الحديث عن فضل أحمد تيمور ، وقد حدث هذا كثيرًا ، وبخاصة عندما ينشر كتاب من كتبه في طبعة حديثة فينبهر الذين لم يطلعوا عليه من قبل .

كذلك فإن الحديث عن فضله وفضل الأسرة التيمورية تجدد في السنوات الأخيرة وبصفة دورية كل عام مع الجهود التي بذلتها السيدة رشيدة تيمور حفيدة ابنه محمد التي نظمت احتفاليات دورية بجدها ومسابقات سنوية لتشجيع شباب المسرحيين كما أعادت نشر أعمال جدها الرائدة ، وهي جهود دءوبة لفتت النظر إلى دور متميز لعائلة ارستقراطية راقية محبة للفكر والفن والأدب ، وما أثمره هذا الدور المكثف والمعطاء من نفع لثقافتنا العربية انتاجًا وارتقاء .

*****

*****